تأليف:
فاطمة عقيل
مدينةٌ لا تسكنُها الأحلام

مدينةٌ لا تسكنُها الأحلام

تأليف:
فاطمة توفيق عقيل

اللهمّ غزّة قد تكالب عليها الغريب، وخذلها القريب
ولم يبقَ لها إلّا السّميع المُجيب
اللهمّ هوّن على أهلها وانصرهم وآمِنْ رَوْعَاتهم.

الإهداء:

إلى كلّ من ملأ كأس أرضه بدمائه الطاهرة.
إلى كلّ بطل صنع مجداً في وطنه، ولم يخضعْ لعدوانٍ رايته خاسرة.
إلى كلّ فلسطينيّ ما زال يقاوم لينالَ شرف النصر بأهدافٍ باهرة.

الإهداء إلى كلّ فلسطينيّ مقاوم وشهيد.

حياتنا ليست أن نستيقظ كل يوم ونذهب إلى العمل بغية تحصيل المال.
الحياة هي ألّا يخلع المرء رداء إنسانيّته عنه، إنّ خُلِعَت ثياب الإنسانيّة خُلِعت ثياب الحياة.

ملحوظة:

إنّ هذه القصة وشخصياتها من وحي الخيال؛ ولكنّها مرآةٌ حقيقيةٌ تعكس مرارة الواقع.

ما حلمك؟

طفل من غزة: نحن أطفال غزة أحلامنا سواسية، إنّ أحلامنا تضع قناع البساطة، ويا لبساطة طفل أقصى أحلامه أن يكبر!

فتحتُ عينيّ ببطء، ثمّ قطع صوته الرفيع الوجوم الثقيل الذي يتجوّل بيننا.

سألني الطبيب: بماذا تشعر؟

(علي): أشعر بخدر يسري في عروقي، لا أستطيع إخراج الأحداث من ذاكرتي، وكأن كل شيء حدث أمس!

سألني: هل أصبحت تعاني من مشكلات جسدية؟

(علي): أشعر أحياناً بخفقات في القلب، ورعشة تصيب أعصابي؛ نتيجة الخوف من أن يُكرَّر الحدث نفسه.

قال: ماذا عن أهلك؟

زفر (علي) زفرةً مطولة، وأغمض عينيه، ثم قال:

منهم من عاش، ومتّ أنا.

سألني: ماذا تتمنى في هذه اللحظة؟

(علي): أتمنى أن أنسى، أن أبني حياةً وأحلاماً جديدة، ولكن الذكريات لا ترحم أحداً، كانت أمي -رحمها الله- تقول لي دائماً: "إياك أن تتخلى عن حلمك يا بُني، يصبح المرء يتيماً بمجرد تخلِّيه عن حلمه".

الطبيب: وهل أثّرت تلك الجملة في حياتك بعد خروجك من الأحداث؟

(علـــي): طبعـــاً، لـــم أعـــد أحلـــم بشـــيء، أصـــبح الحلـــم كُفـــراً، فكـــرة الحلـــم أصـــبحت عُملـــةً صـــعبة التـــداول بيننـــا، أو بالأحرى أصبح الحلم أصعب بكثير من تحقيقه.

الطبيـــب: أفهـــم مـــن كلامـــك أنّـــك أصـــبحت يتيمـــاً بمجـــرّد غياب تلك الجملة من حياتك؟

(علـــي): لســـتُ يتيمـــاً فقـــط، أنـــا يتـــيم ابـــن مدينـــة اليتـــامى والثّكالى.

الطبيب: وبماذا أثرت تلك الأحداث بالبشر؟

(علـــي): غيّرتنـــا بالكامـــل، لقـــد نفضـــنا عـــن أنفســـنا وصـــدورنا غبـــار الحقـــد والقســـوة، هـــذه الأحـــداث ربطتنـــا ببعضـــنا، لقـــد أصبحت المحبة هواء نتنفّسه، في مدينتي جميعنا إخوة!

لقـــد ثقبنـــا جلودنـــا بحقـــن القـــوة، أصـــبحنا نواجـــه أعـــداءنا، ونـــدافع عـــن أنفســـنا، لقـــد حملنـــا معنـــى الشـــجاعة، وســـنورّثها لأبنائنـــا، نواجـــه المـــوت ونطـــارده، لا يوجـــد شـــيئاً نخســـره، هـــذه الأحـــداث جمعتنـــا وفرّقتنـــا، ربطتنـــا ببعضـــنا وبعثرتنا، قتلتنا وأحيتنا، كانت حرباً مختلطة.

زوى ما بين حاجبيه، ثم قال: أريد أن أسمع.

(ناديا): هيّا يا (علي) لقد تأخرت، إنّ (حازماً) سيسبقك.

قفز (علي) كالضفدع، وأخذ يرتدي ثياب المدرسة، نظرت إليه (ناديا) بدهشة، ثم قالت:

ما حالك يا بُني؟ هدّئ من روعك.

(علي): لا أحب أن يسبقني أحد يا أمي، غداً عندما أصبح طبيباً وينادونني من أجل العملية لن أسير كالسّلحفاة.

ابتسمت (ناديا)، ودنت منه، وأخذت تنفض عن ثيابه غبار الفقر، ثم قالت:

اسمعني جيداً يا (علي): إيّاك أن تتخلى عن حلمك، يصبح المرء يتيماً بمجرّد تخلّيه عن حلمه.

(علي): لا تقلقي يا أمي، سوف أحقق أحلامي.

نظرت إليه بحزن، ثم قالت: وهل تستطيع تحقيق حلمك إنْ كنتَ فقيراً؟

(علي) وهو يبتعد: سأدرس من أجل حلمي، إن الأحلام الصعبة تتغذى من الحرمان يا أمي.

خرج (علي) من المنزل، كان (حازم) يقف بانتظاره.

(حازم): لماذا تأخرت يا هذا؟

(علي): ولِمَ لمْ تذهب؟

ثم أردف وهو يضربه على كتفه ممازحاً: إلّا إذا كنت تريد حملي على ظهرك وتأخذني فهذا أمر آخر.

(حازم): احترم أخاك الأكبر أيها الطفل.

(علي): الاحترام للمحترم يا أخي الأكبر، ما رأيك بسباق أحطم به رأسك؟

(حازم): أنا من سيحطم رأسك أيها الأبله.

وصل (علي) و(حازم) إلى المدرسة، وانتهت المباراة بينهما بفوز (حازم) على (علي)، كان (علي) شديد الذكاء، ويقولون له: طبيب المستقبل، كان حريصاً جداً على درجاته الامتحانية على عكس (حازم)، فهو يكره الدراسة، ويتمنى في بداية كل سنة مدرسية أن تنتهي على خير، حاله مثل حال أي طالب، أما (حازم) فهو شاب صغير يهوى الرسم، كان الرسم منفذه الوحيد للتخلص من أعبائه ومسؤولياته بوصفه الأخ الأكبر.

عاد كلٌ من (حازم) و(علي) من المدرسة.

(حازم): لم يأتِ أبي بعد؟

(ناديا) وهي تطهي الطعام: سيأتي الآن، هذا موعده، اخرجوا والعبوا، وعندما يحين الطعام أناديكم.

عــاد والــدي مــن العمــل، كــان عملــه شــاقاً نوعــاً مــا، يعمــل نجــاراً، وتقــع وِرشــته عنــد ناصــية الشــارع، تناولنــا طعامنا بسرعة، وخرجت أنا وأخي.

(علي): ما رأيك أن ترسمني أيها الرسام العظيم؟

(حازم): حسناً، سوف أُحضر الرسم وأعود إليك.

ثم أردف وهو يدخل: لا ترحل إلى أي مكان، سأعود.

(علــي) باشــمئزاز: إلــى أيــن ســأذهب إن كنــت فــي منزلــي ولا أخرج إلا للمدرسة؟ ما هذا؟ فنان وغبي؟

خرج والدي من المنزل، سألته: إلى أين يا أبي؟

(حسام): سأذهب وأُحضر خبزاً للعشاء.

(علي): هل تحب أن أذهب معك؟

تقــدم (حســام) تجــاه (علــي)، ووضــع يــده علــى كتفــه مربّتــاً، ثم قال:

لا داعــي يــا بُنــي، أقصــد يــا (طبيــب المســتقبل)، لــن أتــأخر، ولكن أريد أن أقول لك شيئاً.

(علي) مستغرباً: قل يا أبي.

(حسام) مبتسماً: أملي فيك يا بُنيّ، أتعلم ماذا؟

أنــت عقلــك ســابق ســنّك، حــافظ علــى هــذا الشــيء، بعــض النــاس ناضــجة الســن وصــغيرة العقــل، والعكــس صــحيح، أنا سأذهب، هل تريد أن أُحضر إليك شيئاً؟

(علي) مبتسماً: سلامتك يا أبي، انتبه لنفسك.

ابتعــد والــدي، وبقيــت أراقبــه حتــى غــاب عــن نــاظريّ تمامــاً، وبــدأت أفكــر بمــا قالــه لــي، ثــم عــاد (حــازم) ممســكاً أدوات الرسم بيده.

(علــي): لــمَ تــأخرت أيهــا الأبلــه؟ أكانــت أدوات الرســم عنــد الجيران؟

(حازم) ساخراً: كانت أبعد.

(علي) باشمئزاز من إجابته: أين أجلس الآن؟

(حــازم): اجلــس هنــاك أيهــا الطفــل، لــن أتــأخر، ربــع ســاعة فقط.

بــدأ برســمي، كنــت أقــف وقفــةً مضــحكةً، جعلنــي أقــف علــى قدم واحدة رافعاً يدي إلى الأعلى، بدأ (حازم) بالضحك.

(علي): لمَ الضحك أيها الضفدع؟

(حازم) وهو يكتم ضحكته: لا شيء.

(علي): ألم تنتهِ بعد؟

(حازم): لقد بقي القليل.

زفر (علي) زفرةً مطولة، ثم قال:

سأقف على قدمي الأُخرى لأُريح هذه القدم المسكينة، لقد تعبت!

(حازم): إياك يا (علي)، إني أضع لمساتي الأخيرة على اللوحة، اصبر قليلاً.

(علي): ضع لمساتك الأخيرة بسرعة أيها الضفدع قبل أن أضع لمساتي الأخيرة عليك.

تقدم (حازم) تجاهي ممسكاً اللوحة، ثم أدارها قبالتي، وقال:

انظر كم أنت جميل يا أخي!

كانت صورة بقرة تقف على قدم واحدة، كانت تقف مثلي تماماً، أخذت اللوحة منه، وبدأت أمزقها، ثم سرت كالثور الهائج لأنقضّ عليه، أوقعته أرضاً، وبدأت أضربه، حتى سمعنا صوت انفجار يدوي في مكان قريب منا!

دخلنا بسرعة من شدة الصوت، فتحنا التلفاز لنرى ما الذي حصل، كانت القنوات الإخبارية تبث إلينا وقوع انفجار خلّفه الكيان الصهيوني، والضحايا كثر، والقذيفة وقعت بجانب الفرن الذي ذهب إليه والدي.

شهقت أمي: والدكم!

خرجنا بسرعة كالمجانين، كان الناس يتراكضون مثلنا، وكأننا في يوم الحشر، كانت (غزة) تهتز لتلك الفاجعة، كانت تبكي دماءً، جميع الأموات أشلاء!

وقفنا أمام المنطقة التي حدث فيها الانفجار، لم نرَ أي أثر لوالدي، الضحايا كثر، والناس تبحث عن أقربائها، الأطفال، والآباء، والأمهات، جميعهم شهداء، قسّمنا بعضنا بعضاً، ذهب كل من أمي وأخي من جهة لنبحث عن جثة أبي المفقودة، واتفقنا أن نلتقي في وجهةٍ محددة بعد الانتهاء من البحث، كنت أدنو من البشر كالمجنون أشرح إليهم صفات والدي لعل أحداً منهم رآه مصادفةً، دنوت من امرأة تبكي وهي تضم جثة طفلها إلى صدرها، نظرت إليّ قائلةً:

ابني، أرسلته ليحضرَ خبزاً؛ فأرسلوه إليّ شهيداً.

بدأت تبكي أكثر وهي تهز جثة فقيدها، ثم أردفت:

لمَ رحلت يا بُني؟ لمن تركت أمك؟

بدأتُ بالبكاء معها.

سألتني: عمّن تبحث هنا؟

نظرتُ إليها ثم قلت: عن أبي، رجل خمسيني، ضخم البنية، والشيب يخالط شعره، له عينان بندقيتان، قمحي البشرة، هل رأيته يا خالة؟

أجابت: أنا هنا منذ قليل، وكما ترى الجثث أشلاء، ورأيت ولدي مصادفة، قم بالبحث عنه لعلك تجده.

وقفت مكاني مربّتاً على كتفها، ثم قلت لها:

رحمه الله يا خالة، أرجوكِ كوني قويةً من أجله.

قالت: ما اسمك يا فتى؟

(علي): أنا (علي).

قالت: سأدعو بأن تجده حياً، اذهب الآن، ولا تضيع الوقت يا صغيري.

ابتعدتُ عنها، وبدأت أسأل كل مجموعة يتكتلون حول جثةٍ يتيمةٍ مرميةٍ، وأخبرهم عن صفات والدي، منهم من لم يجبني قط، ومنهم من أخبرني بعدم رؤيته، ولكن عجباً أين ذهب؟

خرجت من الساحة أجر أذيال الخيبة متجهاً نحو الوجهة التي اتفقنا أن نكون فيها بعد البحث، وقفت أنظر إلى منطقة الفاجعة، وقلت في نفسي: لو أنّي أملك ضماداً أداوي المنطقة لفعلت، رحمكِ الله يا غزة، بدأتُ أتساءل لمَ كل هذا الخراب، لمَ نحن يا الله؟ لا اعتراض على حكمك، ولكن أبي!

أيعقل انتهى عمره هنا بكل بساطة؟ لن أعد أنادي والدي في المنزل؟ لن تعد تراني طبيباً يا أبي؟ بدأت بالبكاء، كانت سيارات الإسعاف تغزو المنطقة، لأول مرة أرى نجوماً في

الأرض، كنت أرى الأكفان تغطي الوجوه، والمياه الحمراء تسيل من خاصرة المكان، كانت سيارات الإسعاف تئن ألماً من أجل ما بداخلها، لمحت من بعيد أمي وأخي، وعلى وجوههم ترتسم أمارات الخيبة، تقدموا نحوي، ثم قالت أمي: لم نجد شيئاً.

(علي): ولا أنا.

(حازم): ماذا سنفعل الآن؟

(علي): لقد خطرت لي فكرة.

(حازم): أخبِرنا.

(علي): اذهبوا أنتم إلى المنزل، وسأحاول الركوب في سيارة الإسعاف، لأصل إلى المستشفى لعلي أجده.

(ناديا): ولكن المستشفيات كثر.

(علي): سأحاول بقدر ما أستطيع الذهاب إلى مستشفيات عدة، وسأعود إن شاء الله.

(ناديا) وهي تبكي بحرقة: حافظ على روحك يا بني.

ثم أخرجت منديلاً من القماش طويل الهيئة، ثم قالت: ضع هذا معك، واستعمله عند الحاجة.

(علي) بعينين دامعتين: إن شاء الله لن أحتاجه لا أنا، ولا أبي، ولا أي أحد.

نظرت إلى وجه أخي الباكي، ثم قلت له: اعتنِ بأمك وبنفسك، أرجوك يا (حازم).

(حازم) معانقاً (علي): عد إلينا، حاول أن تعود إلينا.

(علي): إن شاء الله.

ابتعد أخي ممسكاً بيد أمي، كنت أتأملهم حتى غابوا عن ناظري، نظرت إلى المنطقة، كنت أرى حجم الإنسانية الضخمة المتجسدة والمستوطنة على الأرض أمامي، كانوا يتساعدون من أجل البقاء، إما نحن أو نحن، أصبح الحلم بقاءً، هؤلاء البشر الذين يتساعدون أمامي لا يهمّهم إن سقطت قذيفة أخرى، كان كل همّهم المساعدة، أو بالأحرى "المقاومة" ضد الكيان الصهيوني، أعدك يا وطني أني سأحارب من أجل البقاء، سأساعد أهل بلدي، ستحيا غزة، إن مدينتي مدينة البقاء، مدينتي لا ترضخ للأعداء، أيقنت من هذا المشهد أن "المقاومة" هي شعار مدينتي.

ركضتُ مسرعاً نحوهم، وبدأت أساعد الناس، كنت أراقب الجثث الهامدة أمامي، كنت أتمنى ألا أجد جثة والدي، لا أستطيع رؤية من أحب الناس إلى قلبي ميتاً، وصلتُ إلى سيارة إسعاف شبه فارغة، سحبت الجثة مع الممرضين، ودخلت معهم إلى سيارة الإسعاف، لم يُعيروني أي اهتمام، كان الممرض يضع الأوكسجين على أنف المريض، ثم قال: سمعت أن الكيان الصهيوني سيحاصر المنطقة من جديد.

ردت الممرضة: وأنا سمعت ذلك، هذا الخبر نتائجه سلبية، إن الحصار يُنتج الحرمان.

الممرض: الحرمان يغذي المقاومة يا (ياسمين).

(ياسمين): أيعقل أن تكون نهايتنا على يد الكيان؟

وصلنا إلى المستشفى، ونزلت معهم مسرعاً إلى الغرف، كانت المستشفى تعجّ بالبشر، وكأن كل غزة مصابة، بدأت أدخل غرفة تلو الأخرى، وبدأت أشرح للأطباء صفات والدي لعلهم رأوه، ولكن عبثاً الإجابات متشابهة! وكأنهم اتفقوا على الإجابة نفسها، بدأت أدخل أكثر فأكثر، تخيلوا كانوا يصيحون: "المخدر نفد"، أصوات أخرى تجيب: أجري العملية دون مخدر.

أيعقل عملية دون مخدر؟ يا إلهي كم سيتحمل المصاب كثرة الألم؟ بدأت أسمع أصوات الصراخ والعويل من داخل الغرف، كنت أحاول التمييز ما بين الأصوات، في الحقيقة كنت أخاف سماع صوت صراخ والدي من بينهم، ولكني لم أسمعه، بدأت الأصوات تتداخل وتلفّ بعضها بعضاً، ولم أعد قادراً على السماع، كانت الدماء تخرج سيلاً من الغرف، و كنت أسمع أصوات التشهد صادرة من بعض المصابين خوفاً من الموت فجأة، وأحدهم يصرخ يريد كتابة وصية قبل وفاته، وطفلاً ينادي يريد أمه، وعجوز تبدو في أواخر الثمانينيات تصرخ تريد أولادها، ورائحة الدماء تحبس وتكبس الأنفاس، لم أعد أستطع المقاومة في المستشفى ولا لأي لحظة، خرجتُ

منهـا مسـرعاً، وبـدأت أتقيـأ فـي الطريـق، وأصـابني الـدوار، ورحـت أمشـي كالسّـكارى، كانـت محـاولتي فـي البحـث فاشـلة تمامـاً، أصـبحت الصـورة أمـامي قاتمـة، لا أسـتطيع رؤيـة أي أحـد، والبـرد يتجـول فـي المنطقـة، لـم أعـد أشـعر بشـيء، حتـى أطرافـي السـفلية تعبـت وخـارت قواهـا، فسـقطت أرضـاً فاقـداً للوعي.

اسـتيقظتُ فـي المنـزل، كانـت أمـي تقـف بجـواري تمسـكُ بيـدي وهـي تشـهق بالبكـاء، وأخـي بجوارهـا يحـدّق بـوجهي، قطعـت أمـي الوجـوم الـذي دار بيننـا، فقالـت: لقـد خفـتُ عليـكَ كثيراً يا بُني.

(علي): كيف وصلت إلى المنزل؟

(ناديـا): لقـد تـأخرت البارحـة كثيـراً، خرجنـا أنـا و(حـازم) نبحـث عنـك فـي الطرقـات؛ فوجـدناك مرميـاً علـى الأرض أمـام المستشفى.

(علـي) وهـو يـزوي بـين حاجبيـه مُسـتعيداً أحـداث البارحـة: نعـم نعم.

(حازم): أخبرنا ماذا حدث في المستشفى؟

(علـي) وهـو يسـحب الغطـاء ويغطـي وجهـه: لا شـيء، لـم أجـد شيئاً.

(ناديا) بحدة: إياك أن تقول ذلك، إن أباك حيّ يرزق، إن ظننتم أنه مات، فأنا لا أظن ذلك، سأجلس عند الباب، سأنتظره حتى يعود.

خرجت (ناديا) من الغرفة، سحب (حازم) الكرسي وجلس، ثم قال: مسكينة، إنها لا تصدق.

(علي) وهو يرفع الغطاء عن وجهه: وأنا أيضاً لا أصدق، لعله يقنط في غير مستشفى، لن تصدق يا (حازم) المشاهد التي رأيتها البارحة.

(حازم) باستغراب: ماذا رأيت؟

(علي): رأيت الناس أحياء وأموات، رأيت من يحتضر، رأيت من يتمنى الحياة، رأيت الدماء تخرج من البطون، رأيت أطباء يجرون عمليات دون تخدير، رأيت يتامى يبكون فوق أكفان أهاليهم، وثكالى يبكون فوق أكفان أولادهم، هناك شعب آخر يموت.

(حازم) وقد خرجت الدموع من محاجر عينيه: أخبرني يا (علي)، ماذا يمكننا أن نساعد؟

(علي): البيوت سقطت، هذا يعني أنه لا مأوى للبشر، وقد أخذوا الناس إلى المساجد، ومن الطبيعي أنهم يحتاجون شيئاً يغطي أجسادهم ليلاً.

(حـازم): أريـد التبـرع مـن ملابسـي للأطفـال، وأغطيـة كـي يغطـوا أجسادهم ليلاً.

(علي): فكرة جيدة، وأنا معك.

أخـذ كـل مـن (حـازم) و(علـي) أغطيـةً، وثيابـاً للأطفـال، وأقمشـةً عـدة لأي شـخص يحتـاج، مـع أن والـدهم مفقـود، والفقـر أثقـل كـاهلهم، إلا أنهـم لـم يستسـلموا، ظلـوا يسـاعدوا الفقـراء، وأطعمـوا الجـائعين، كانـت المقاومـة شـعاراً رئيسـاً اتخـذه كـل شخص في غزة، إلا أن الكيان فعل شيئاً غير متوقع.

اسـتيقظنا إثـر أصـوات انفجـارات قريبـة منـا، لا أسـتطيع أن أصـف لكـم كيـف اهتـز منزلنـا، وكـأن شخصـاً مـا أخـذ منزلنـا بـين يديـه الكبيـرتين، وبـدأ يخفقـه، وحتـى النوافـذ كُسـرت مـن شـدة الضـغط، كنـت أشـعر أن المـوت قريـب جـداً، أخـذتنا أمـي بـين يـديها تضـمنا إلـى صـدرها، ثـم قالـت: لا تتفرقـوا بعيـداً، أخـاف أن أخسـر أي أحـد مـنكم، أريـد أن أضـمكم إلـى صـدري قبـل أن نموت.

ابتعـدت عنهـا، وفتحـت التلفـاز لنـرى مـاذا جـرى، وهنـا كانـت الصـاعقة! وقـوع ثلاثـة انفجـارات فـي أمـاكن شـتى، والضـحايا لـم تعـد تسـع المستشـفيات، والعمليـات يجرونهـا فـي الشـوارع، والكيـان أغلـق الحـدود منعـاً مـن إيصـال المعونـات

إلينا، وقُطعت المياه، وشبكات الإنترنت، لم أكن أكمل قراءة الجملة حتى قُطع التيار الكهربائي، بدأت أمي بالبكاء، ثم قالت: كيف سنعيش؟ أخبروني كيف سنعيش؟ إلى أين وصل بنا الحال يا الله؟ إن قُطع كل شيء

أين وصل بنا الحال يا الله؟ إن قُطع كل شيء عنا، كيف سنكمل أيامنا الباقية؟ كيف ستكبر الأجيال؟ من سيُواسينا على أيامنا؟ زوجي لا أعلم أين هو الآن.

دخلت أمي في حالة صدمة غير مصدقة ما يجري، كانت أياماً صعبة تتطلب منا أن نبقى صامدين أقوياء، تخيلوا لم أكن أبكي قط، البقاء للشجعان، أخذتُ أمي إلى غرفتها لتنام، وجلست أنا و(حازم) نتناقش.

(حازم): ما مشاريعنا لهذه الأيام؟

(علي): أن نبقى على قيد الحياة.

(حازم): من أين سنأكل؟ الطعام سينفد.

(علي): الخبز اليابس، سنرش فوقه المياه ونأكل.

(حازم): هذا آخر شيء كنت أتوقعه.

(علي): أتمنى لو كان أبي معنا.

(حازم): ماذا لو نفد طعام المدينة؟ إن المعونات لن تصل، ما رأيك بالهروب؟

(علــي): هــذا شــيء مســتحيل، ألا تفكــر بأمــك؟ إنهــا لا تســتطيع الهروب، إن الفكرة ذاتها تشبه بيع أرواحنا في مزاد علني.

(حــازم): الكهربــاء قُطعــت، وكــذلك الميــاه، وشــبكات الإنترنــت، والحدود، بقاؤنا هنا سينتج عنه الموت.

(علي): لِمَ لا نتحدث مع الشباب كي نحارب الكيان؟

(حـازم): هـذا أمـر مسـتحيل، نحـن لا نملـك شـيئاً، وهـم يملكـون كـل شيء.

الطبيب وهو يعطي كأس الماء ل(علي): اشرب يا (علي)، أخبرني هل حاربتم الكيان بعد انقطاع سبل الحياة؟

(علي): أيها الطبيب، لا أحد يحب أن يرى أرضه محتلة دون أن يحارب، إلا إن كان المرء متجرداً من ثياب إنسانيته.

الطبيب: ولكن لا حرب دون خسائر.

(علي): الخسائر مع حياة لا تخضع للذل والهوان أفضل بكثير من فوز مع حياة ذليلة تقبل الهوان.

الطبيب: وهل الخسائر ناولتك حياة غير ذليلة؟

(علي): نعم، وعلى الأقل حافظت على ما تبقّى من رماد كرامتي.

الطبيب وهو يحدق بوجه (علي): ماذا خسرت يا (علي)؟

أدار(علي) وجهه، ثم قال: لقد ربحوا جميعاً، وخسرت أنا كل شيء مقابل أن أعيش.

الطبيب: وهل كان السفر حركة مفصلية فصلت حياتك السابقة عن حياتك الحالية؟

(علي): طبعاً، لو ما قاومنا وقاتلنا لما وجدتني هنا، وآخر حرب أقمناها خسرت فيها شيئاً ثميناً.

الطبيب: ماذا خسرت؟

(علي): سأخبرك...

(حـازم): الوضـع غيـر آمـن يـا (علـي)، الانفجـارات تتـوالى يومـاً بعد يـوم، لا نعلـم متـى نلقـى حتفنـا فـي هـذا الأرض، أرضـنا تنـزف يا أخي.

(علـي) وهـو يضـم ركبتيـه إلـى صـدره: سـنلقى حتفنـا يومـاً، واليـوم هـو دوري مـن أجـل الخـروج وإحضـار الطعـام، أتعلـم؟ أخـاف أن ألتقي بأبي مصادفةً.

(حازم) بحسرة: لعلنا يا أخي، ما رأيك بأن أخرج بدلاً منك؟

(علـي): لا، خرجـت أنـت البارحـة، انظـر انظـر إلـى وجهـي الضامر، لقد ضمرت!

(حـازم): حالـك مثـل حـال الجميـع، انظـر إلـى أمـك المسـكينة، مـا زالت تنتظر والدنا.

(علي): لا ألومها، جميعنا نكره الغياب فجأة.

(حازم): كثرة الانتظار تعدم الرغبة تجاه الحياة.

(علـي): عـن أي حيـاة تتحـدث؟ النـوم جوعـاً، والشـعور بـالبرد الـدائم، وهنـاك مـن ينـام دون غطـاء، وأكـل الخبـز اليـابس، العـيش مع شعور الخوف، هذه هي الحياة برأيك؟

(حازم) بعينين دامعتين: كفى بالله عليك، سأخرج لأمشي قليلاً.

(علي): انتظر، سأخرج معك.

كانت أمي تجلس عند الباب، تمسك منديلاً وتبكي، نظرت إلينا كمن يلوم الآخر، وكأنها تقول: لا تخرجوا، ألا يكفي والدكم؟

قالت: إلى أين؟

(حازم): سنمشي هنا قليلاً، لن نتأخر.

(ناديا) بعينين دامعتين: إياكم أن تبتعدوا، لا أريد فقدان أي أحد منكما.

(علي) مربّتاً على كتف أمه: لا تقلقي يا أمي، سنكون بخير، أعدك.

(ناديا): أرجوكم، أرجوكم إن رأيتم والدكم قولوا له إنني انتظره، قولوا له إني لا أطيق صبراً، إلى متى هذا الجفاء؟ قولوا له إني كبرت عشر سنوات في غيابه.

(علي) وهو يبكي: اصبري يا أمي، إنه حي يرزق إن أذن ربي بذلك.

خرج كل من الأخوين، كانت قطع البيوت تحتضن الأرض، والمياه الحمراء تسقي المكان، ورائحة الدماء تعانق جزيئات الهواء، المحزن في الأمر من سيبني كل هذا؟ أين سينشأ الجيل الحاضر؟ أيعقل في المساجد؟

رأينا طفلاً صغيراً يجلس أمام منزله الهامد، دنونا منه، كان يحاول النوم دون جدوى.

(علي): مرحباً.

عدّل الطفل جلسته، ثم قال: هل وجدتم أمي؟

نظر (علي) و(حازم) بتعجب، أخرج الطفل صورة من جيبه، ثم أردف:

هذه صورة أمي، كانت تطهي الطعام، عدت ولم أجدها، عدت ولم أجد المنزل، لم أجد أحداً من عائلتي، هل رأيتموها؟

(علي) وهو يجثو: لا أيها الصغير، ولكن لمَ أنت هنا؟

الطفل: لقد حاولوا أخذي، حاولوا الضحك مني، قالوا لو أتيت معنا سنحضر إليك والدتك، لم أصدقهم، لقد بقيت هنا أنتظرها، ولكنها لم تأتِ.

(حازم): أين كنت عندما سقطت القذيفة في منزلكم؟

الطفل: كنت في المدرسة، وعدتني أمي إن حصلت على تقدير ممتاز في المدرسة ستحضر إليّ كعكاً، وعندما عدت إليها معي شهادة وبتقدير ممتاز وجدتها قد أخذت شهادتها قبلي، لفظتها وماتت، لقد انتظرتها ولم تنتظرني؛ لكنّي لم أفقد الأمل، ما زلت أنتظرها، الأموات يلتقون مع الأحياء، أخبرتني -ذات مرة- بذلك.

(حازم) وهو يبكي: ولكنها لن تعود يا صغيري.

الطفل وهو يخبّئ وجهه بين يديه: لا تقل ذلك، ستعود يوماً.

(علي): ما رأيك بأن نذهب إلى المسجد؟

الطفل: قلت لكم بأني أنتظرها هنا.

(علي): لربما تنتظرك في المسجد، إن انتظرتها هنا ستأخذ برداً، وستجوع، سيراك العدو ليلاً، هناك في المسجد يوزعون أغطية للأطفال، والكعك الذي تحبه، هناك ستأكل بقدر حاجتك.

الطفل: تريدني أن أتناول الطعام؟ ماذا لو كانت أمي جائعة؟ ماذا لو كانت تشعر بالبرد؟

(علي): أمك الآن في الجنة يا صغيري، أمك الآن تأكل وتشرب، ولا تشعر بالبرد، ولكن إن رأتك في هذه الحالة ستحزن من أجلك، أتحب رؤيتها حزينة؟

الطفل: معاذ الله يا أخي، سأذهب معكم.

أخذنا الطفل إلى المسجد، كانت المشاهد فظيعة! كان المسجد مملوءاً بالبشر، وكأنهم اتفقوا على الأمر، هناك من يقرأ القرآن، وهناك من يدرّس الأطفال أحكام التجويد، هناك من يضحك، هناك من يبكي، هناك من يأكل، هناك من ينام، في المسجد كل أصناف البشر!

خرجنا من المسجد والدموع تذرف من محاجر أعيننا، أخذنا نعود أدراجنا إلى المنزل قبل أن نرى شيئاً يُبكينا أكثر، قبل أن نصل إلى منزلنا أوقفتنا امرأة أربعينية وصفعت (علي) بقوة، نظر (علي) بتعجب إليها، ثم قال:

لماذا صفعتِني يا خالة؟

قالت وهي تبكي: أخذوه.

(حازم): من أخذ من؟

الامـرأة: أخـذوا ابنــي مـن أحضــاني، مــا زال رضـيعاً، أو اسـمعوا جيـداً هم لـم يأخـذوه، هـو لـم يمـت، قـالوا أنهـم سـيعيدوه إلــي، اسـمه (محمد)، كنت أسمع صوت بكائه منذ قليل.

بـدأت تلتـف حـول نفسـها، ثـم أردفـت: هـو هنـا مـن حـولي، ولكنـي لم أجده.

(حازم): سآخذ (علي) معي، سنبحث عنه ونعود، لا تقلقي.

سـحب (حـازم) يـد (علــي) بسـرعة، وركضـا نحـو المنـزل، كانت (ناديا) تقف عند الباب.

(ناديا): لِمَ تأخرتم؟

(حازم): رأينا طفلاً صغيراً أمام بيته، أخذناه إلى المسجد.

(ناديا): جزاكم الله خيراً، ولكن لمَ لم تحضرا خبزاً؟

(علي): سأخرج الليلة.

(ناديا): لا أريد توصيتك، حافظ على روحك يا صغيري.

(علي): إن شاء الله.

خرج (علي)، وبدأ يجمع الخبز المرمي في الشوارع، كانت الساعة العاشرة مساءً، وعند اقتراب وصوله إلى المنزل سمع صوت صرير أقدام، التفت وراءه فلم يجد أحداً، بدأ يمشي ببطء، وعاد الصوت من جديد، اختبأ (علي) في زقاق ضيق ليرى من يمشي وراءه، وعند محاولته للالتفات ليرى من الشخص الذي يتبعه سراً، ظهر أمامه شخصاً ملثماً يحمل رشاشه على كتفه، قال الشاب: من أنت؟ وماذا تفعل ليلاً في الشوارع؟

ازدرد (علي) ريقه، ثم قال بخوف: كنت أجمع خبزاً للطعام، إن أمي تنتظرني لأحضر الخبز للعشاء، أرجوك لا تؤذيني.

أظهر الشاب نصف وجهه، ثم قال مبتسماً:

لا أظن أني سأؤذي ابن بلدي، أنا اسمي (عامر)، وأنت؟

نظر إليه (علي) بتعجب، ثم قال:

(علي)، اسمي (علي)، ولكن لماذا تضع هذا الشيء على وجهك يا (عامر)؟

(عامر): نحن الشباب قسمنا بعضنا بعضاً لكتائب لمحاربة الكيان، نخرج ليلاً خوفاً من شنّ هجوم إلى المدينة، نقتل العدو سراً إن وجدناه مصادفة.

(علي): أتعرف؟ إني أحبذ الانضمام إليكم، أتقبلونني؟

نظر إليه (عامر) نظرة مطولة، ثم قال:

هل تريد الثأر لأحد؟ أو بالأحرى هل كان أي أحد من عائلتك أو أقربائك ضحية للكيان؟

(علي): نعم، نعم والدي، عند أول قذيفة كانت بجانب الفرن، كان هناك والدي يحضر خبزاً، ولكننا لم نجده حتى هذه اللحظة.

(عامر): ألم تبحثوا عنه؟

(علي): بلى، بحثنا كثيراً، ولكنه اختفى فجأةً.

(عامر): لقد تعاطفت مع وضعك هذا، بإمكانك الانضمام إلينا.

(علي) بسرور: شكراً، شكراً لك، ولكن معي أخي، إنه أكبر مني.

(عامر): كم تبلغان؟

(علي): أنا ثلاثة عشر عاماً، وأخي خمسة عشر عاماً.

(عامر): جيد، أحضره معك عندما أراك في المرة القادمة، لربما نحتاجكم لمراقبة العدو إن قدم إلى المكان.

(علي): أين سأراك في المرة القادمة؟ ومتى؟

(عامر): غداً، هنا في المكان نفسه.

(علي): اتفقنا، شكراً لك.

(عامر): وداعاً.

ابتعد (عامر)، حتى غاب عن ناظري (علي)، عاد (علي) أدراجه، لم يجد سوى صوت ضرب الرصاص بجانبه، والرصاصة قد حفرت قسماً في كتفه، بدأ يركض حتى وصل إلى منزله.

قفز (حازم) تجاه علي، ثم قال بصدمة:

ماذا حدث؟ ما كل هذه الدماء؟

(علي) وهو يبتعد عن (حازم): أين أمك؟

(حازم): دخلت لتنام، جيد لقد دخلت قبل أن ترى هذا المشهد الفظيع.

قطعت (ناديا) كلام (حازم) إثر دخولها إلى الغرفة، فقالت:

ما هذا؟ (علي)؟ ماذا حدث؟

أمسكت (ناديا) طرف قميص (علي)، وبدأت تهزه بعنف، فبدأت تبكي، ثم أردفت:

ألا يكفي والدكم؟ أنتم لا ترحمونني، لماذا تفعلون هكذا بأنفسكم؟ ماذا حدث معك يا بُني؟

(علـي): كنـت أحضـر خبـزاً للعشـاء، وعنـد اقترابـي مـن المنـزل أُطلق عليّ الرصاص من الكيان.

(ناديـا) بعينـين بـاكيتين: لِـمَ لـم تضـع قطعـة القمـاش التـي أعطيتـك إياها؟

(علـي): لأننـي لـم ألحـق، كـان العـدو يـركض ورائـي، ثـم حاولـت إضاعته حتى وصلت.

(ناديـا): اسـترخِ كـي أنظـف لـك الجـرح، اخـرج أنـت غـداً يـا (حازم).

(حازم): كنت سأخرج اليوم، ولكنه منعني.

(ناديـا) وهـي تنظـف الجـرح: انتبـه لنفسـك فـي المـرة القادمـة يـا حبيبـي، لا أريـد خسـارتكم مـع أننـي أعتقـد أنّ والـدكم مـا زال حيـاً، ما رأيكم؟

(حازم): هـذا الاعتقـاد خـاطئ يـا أمـي، لـو كـان حيـاً لكنـا عرفنـا، أو حتـى أرسـلوا إلينـا خبـراً مـن إحـدى المستشـفيات بإحضـارنا إلـيهم والاطمئنان عليه.

(ناديـا): لا يـا (حـازم)، الضـحايا كثـر، لـن يضـيعوا وقـتهم بإرسـال أخبـار الضـحايا إلـى أهلهـم، هـم يكتفـون بمُشـافاتهم، وأنـت يـا (علي)، ما رأيك؟

(علـي): رأيـي مـن رأيـك، أعـدك يـا أمـي سأحضـر إليـك أبـي حيـاً، أعدك بذلك.

(ناديا): أنت مشاغب يا (علي)، دائماً تعرّض نفسك للخطر.

(علي): لأنني أشعر أن والدي على قيد الحياة، وهذا الذي يدفعني للمخاطرة.

(ناديا): لقد انتهيت من تنظيف الجرح، سأذهب إلى النوم، كلوا وناموا.

(حازم): أنتِ؟ ألا تريدين أن تأكلي؟

(ناديا): لا يا بُني، كلوا وناموا، نوماً هنيئاً لكم.

خرجت (ناديا) من الغرفة، متجهة نحو غرفتها.

(حازم) وهي يرش الماء فوق الخبز اليابس: هيا يا (علي)، تعال لنأكل، إني أتضوّر جوعاً.

(علي): ...

(حازم) وهو يلوّح بيده: (علي)؟ ما بك؟ بماذا تصفن؟

(علي) وهو يعود إلى واقعه المشؤوم: ماذا؟ هل ناديتني؟

(حازم): قلت لك تعال لنأكل، ولكن لا أعلم من سلب عقلك يا هذا.

(علي) بامتعاض: لا أريد الخبز، لقد مللت، مللت من كل شيء، علينا كل يوم الذهاب لإحضار الخبز ولا نعلم إن كنا سنعود أحياء أو أموات.

(حازم): هل جرى شيئاً لك يا أخي؟

(علي): أنا موجوع، الجرح يؤلمني.

(حازم): كُلْ طعامك الآن لربما الطعام يخفف من وطأة ألمك.

(علي): لقد صادفتُ شاباً عشرينياً عند عودتي، الشباب هنا يتكتلون لكتائب لمحاربة الكيان ليلاً خوفاً من شنّ هجوم فجأة.

(حازم): أتفكر فيما أفكر؟

(علي): لقد تحدثت معه من أجل خروجنا معهم، وأخبرني بخروجنا معهم غداً، وسنلتقي في مكان قريب من هنا.

(حازم): لا أظن أن والدتنا ستقبل بالأمر.

(علي): ولكن البلاد تتطلب منا ذلك يا (حازم).

(حازم): هل تريد إخبارها؟

(علي): حقٌّ علينا إخبارها.

(حازم): ألم ترَ كيف رأتك في هذه الحالة؟

(علي): لقد توقعت ذلك، ومن الطبيعي أن تكون ردة فعلها تلك، إنها الأم، الأم قطعةٌ من الجنة، وعلينا إخبارها يا أخي.

(حازم): ماذا لو لم تقبل؟

(علي): حينها سوف نضطر إلى التناوب.

(حازم): وضّح أكثر.

(علي): سنخرج في السر، يومٌ أنا ويومٌ أنت، وعندما ستستيقظ أمك فجأة ولن تجد أحد منا سنخبرها بعذر يليق بالمشكلة.

عشنا أياماً صعبةً قاسيةً، كنا نتقاسم طعامنا، لقد قلّ الخبز، وقلّتِ الحياة، كان الماء ينفد يوماً بعد يوم؛ فازدادت صعوبة هضم الخبز مع قلة المياه، وازدادت صعوبة الحياة، ولم نخرج في ذلك اليوم للقاء الشباب، ألقينا أنا وأخي على ذلك السر غطاءً لم نفتحه حتى يومنا هذا، قلتِ الحيلة، ومات

الشغف تجاه كل شيء، ومع كل تلك الصعوبات التي واجهناها ازدادت مقاومة أهل غزة، فقد طفح الكيل، في غزة جميعنا نعاني من النحافة، وقليلة تلك الحالات التي نجد فيها البدانة، مدينة لا يوجد فيها الكهرباء، ولا الماء، ولا الانترنت، ولا الطعام، ولا أساليب التدفئة، مدينةٌ تقلّ فيها الحياة، وتُحييها صلاة البشر، مع كل هطْلةِ مطر كنا نخرج الدّلاء كي نجمع المياه المتساقطة، نحن نعيش برحمة الله، بين كل مدة ومدة كنا نعطي ثيابنا لمن أكبر منا سناً، كانت تلك الثياب لا تناسب أحجامنا، لقد ضمرنا، والثياب أصبحت وسيعةً لا تناسب فتىً نحيلاً مثلي، لم أتوقع يوماً أن نصلَ إلى مثل هذه الأيام، لم أتوقع أن نصاب بداء الجوع وقلة الحياة، لم أتوقع أن نصاب بداء الصمت والذي لا بُدّ أن يصرخَ يوماً، لقد كبرنا قبل أواننا يا الله.

بدأ (علي) بالبكاء، لقد كان الواقع قاسياً.

الطبيب: اهدأ يا (علي)، لكل مشكلة في الدنيا حل.

(علي): قد تُحلّ المشكلات أحياناً، ولكن أثرها لا يزول أيها الطبيب.

الطبيب: صحيح، ولكن نحن مجبرون على التجاوز، هذه الحياة تتطلب منا أن نكون أقوياء، هذه الحياة لا تكافئ إلا القوي، الجبناء هم من يعيشون أمواتاً على قيد الحياة.

(علـي): أخبرنـي مـن أيـن نشـتري التجـاوز إن كـان الماضـي يقبـع في ذاكرتنا؟

الطبيـب: أعلـم جيـداً أن التجـاوز صـعبٌ جـداً، ولكنـك مـع مـرور الوقت ستنسى، الوقت دواء لكل شيء.

(علي): الوقت والمغادرة عند التألم.

الطبيب: تماماً، أخبرني إذاً ماذا حدث عند ازدياد الآزمة؟

(علـي): كلمـا ازداد الألـم ازدادت المقاومـة، هكـذا عشـنا فـي المدينة.

الطبيب: وهل كانت للمقاومة نتيجة؟

(علي): أحياناً.

الطبيب: عشتم دون طعام؟

(علـي): أحيانـاً عنـد اشـتداد الأزمـة كنـا نضـطر لأن نحتـاج مـن الجوامـع، جميـع البشـر يتسـاعدون دون تـأفف أو مقابـل، كنـا نأخـذ الطعام منهم، وأحياناً ننام دون أن نأكل مدة يومين.

الطبيب: والانفجارات هل ظلت مستمرة أم قلت؟

(علـي): أحيانـاً عنـدما نقتـل مـن رجـال الكيـان يغضـبوا منـا غضـباً شديداً، حينها تُقصف المباني وغيرها.

الطبيب: وهل خرجت مع أخيك من أجل المحاربة؟

(علي): نعم.

الطبيب: وهل قبلت والدتكم الخروج؟

(علي): لا، لم تقبل، ولكننا تناوبنا، مع أننا تحدثنا معها بنية الخروج، وأن شباب غزة لا يقبلون الذل والهوان، كان تحرير غزة هو الأساس، الموت بكرامة أفضل بكثير من حياة ذليلة، هكذا كنا نتحدث مع بعضنا بعضاً.

الطبيب: وحينها اضطررتم للخروج دون إخبارها.

(علي): نعم، ولكن بتناوب حتى لا تشعر بشيء، وإن استيقظت فجأة ولم تجد واحداً منا كان عذرنا هو الخروج لإحضار الطعام.

الطبيب: ماذا حدث بعد ذلك؟

(علي): ندمت على ذلك القرار، ليتنا لم نخرج، ولكن الندم لا ينفع بعد ارتكابنا الخطأ، علينا إما التقبل مع الحياة المريرة، أو التعايش مع شعور الندم.

الطبيب: أخبرني ماذا جرى؟

(علي): ...

(علــي): أمــي، إن شــباب غــزة يخرجــون لحراســة المدينــة لــيلاً، وســوف نتنــاوب أنــا و(حــازم) للخــروج مــع الكتائــب ضــد الكيــان في كل ليلة.

(ناديا): لن أقبل.

(علي) بحدّة: لماذا؟ لماذا تمنعيننا من تحرير مدينتنا؟

(ناديا) بحزم: قلت لن أقبل، إني غير مستعدة لخسارة أحد منكما، يكفي والدكما.

(حازم): الموت سيأتينا إن كنا هنا أو هناك.

(ناديا): أنت تذهب إلى الموت بقدميك يا (حازم).

(حازم): ولكنني أود الموت فداء لوطني، لا أريد أن أعيش حياة ذليلة.

(علي): ماذا لو وجدنا والدي مصادفة؟ من يدري؟

(ناديا): لا، لا أريد، إياكم والنقاش بهذا الأمر مرة أخرى.

(حازم): ولكن كل شباب غزة أبطال! جميعهم يحارب، أنا أطمح لأكون شهيداً.

دنت (ناديا) من (حازم) واحتضنته إلى صدرها، ثم جذبت (علي) إليها من يده واحتضنته هو الآخر، ثم قالت:

لا تقل ذلك يا حبيبي، فوالله يعزّ على الأم فقدان أحد أولادها، وبالنسبة إليّ لا شيء يوجعني سوى الفقدان!

(حازم): أمي، أرجوكِ، دعينا نذهب، نحن ميتون هنا أو هناك.

(ناديا): لن أدعكما.

عـاد (علـي) إلـى المنـزل مرهقـاً عنـد شـروق الشـمس بعـدما حرس المدينة مع شبابها.

(حازم) وهو يفتح له الباب ببطء: لقد تأخرت!

(علي) وهو يغمض عينيه: دعني أذهب لأنام، لقد تعبت.

(حازم): ولكنك لم تخبرني ماذا فعلتم.

(علي): لقد تعلمت إطلاق الرصاص، وقتلت جندياً صهيونياً.

(حازم) باندهاش: قتلت!

(علي): نعم، أخبرني هل استيقظت أمك إثر غيابي؟

(حازم): لا، ولكنني بقيت طوال الليل قلقاً خشية أن تستيقظ.

(علـي): جيـد، أتعلـم يـا (حـازم) أن الخـروج لحمايـة المدينـة يعـد شيئاً جميلاً ومخيفاً في الوقت نفسه؟

(حازم): كلمني بوضوح.

(علـي): الشـيء الجميـل هـو أن تجاهـد فـي سـبيل الـوطن، والمخيف هو الموت.

(حـازم): المـؤمن لا يخشـى المـوت، والمـوت فـي سـبيل الـوطن يحيلنا إلى الجنة، كم أود أن أموت هكذا.

(علي): ...

(حازم): أخبرني، ماذا فعلتم أيضاً؟

(علي): تناولنا الخبز اليابس، وتجولنا في أصقاع المدينة، واتخذنا كلباً صديقاً لنا.

(حازم) بسخرية: جيد، أحياناً الكلاب أنقى وأوفى من البشر، فكيف إن كان صديقك؟

(علي): دائماً وليس أحياناً.

(حازم): أتقصد دائماً الكلاب تصادق الكلاب؟

(علي): نعم، لذلك اتخذتك صديقاً لي.

(حازم): هكذا تساوَينا إذاً.

(علي): لا لن نتساوى أنا وأنت، ذلك الكلب شعرت أنه يشبهك، فاتخذته صديقاً لي لأتذكرك دائماً.

بدؤوا بالضحك، ثم فُتح الباب وأطلت (ناديا)، فقالت:

صباح الخير، من غير عاداتكم الحيوية والنشاط.

(حازم): صباح النور يا أمي، اليوم أشعر بطاقة إيجابية، ولن أسمح لأي أحد أن يخفف وطأتها علي.

(ناديا): أدامها الله عليك يا بني، أريد أن أعتذر إليكم عما قلته البارحة، ولكنني كنت غاضبة جداً من أجل قرار خروجكما من المنزل ليلاً، أعلم أنني لن أبدل رأيي، ولكنني أعتذر.

نظر (علي) باستغراب إلى (حازم) ثم قال مداعباً:

لا تقلقي يا أمي، أنا و(حازم) كالتماسيح، لا نتأثر كثيراً بما يقال لنا.

نظر (حازم) إلى (علي) وهو يغمز إليه بعينه، ثم قال:

صحح قولك يا أخي، تقصد أن الكلاب لا تتأثر.

ثم عاودوا الضحك مرة أخرى، نظرت إليهما (ناديا) باستغراب، ثم قالت:

ماذا يحصل هنا؟ لم تضحكون؟ لا بد أنكما أصبتما بالجنون.

(علي): إنها طاقة ابنك الأكبر تؤثر بي يا أمي.

(علي) وهو يأكل مع (حازم): سأخرج أنا اليوم يا (حازم).

(حازم): ما كل هذه الأنانية يا أخي؟

(علي): أخاف عليك.

(حازم): سنخرج معاً.

(علي): وأمك؟

(حازم): لن نتأخر.

(علي): لا، هذه الفكرة غير صالحة للتطبيق، لن آخذك.

وبعد جدال خرج كل من الأخوين، والتقوا مع (عامر) والشباب البقية.

(عامر): سمعت أن الكيان سيشن عدوانه، ولن يترك حال المدينة.

(علي): وهل نملك السلاح الكافي للحرب؟

(عامر): لن نوزع الأسلحة على الشباب كافة، سنرسم خطة بحيث نقتل العدو بالنار أو بالخنق أو بالتعذيب والضرب.

(يوسف): هذا يعني لن نوقد النار هذه الليلة.

(عامر): أمر مستحيل، إن أوقدناها سيلاحظون الأمر، ثم سيهاجموننا ولن ننجح بقتلهم.

(يوسف): جيد.

(عامر): جاهزون يا شباب؟

الشباب بصوت واحد: جاهزون.

(عامر): الآن سوف نقسم بعضنا، بعض منا سيوزع الخبز والماء على أهالي المدينة، وبعضنا الآخر سيوزع الملابس، عندما ننتهي من عملية التوزيع سنتقابل هنا، ثم سنأكل الخبز ومن ثَمَّ سنخرج لمحاربة الكيان، فالمعونات وصلت ولا نريد أن نقطع نصيب أي عائلة بما تحتاجه.

بدؤوا بتوزيع الحاجيات على أهالي المدينة، ومن ثَمّ تقابلوا في المكان نفسه، وتناولوا الخبز، ووزعوا الأسلحة، ورسموا خطة ليوقعوا الكيان في فخ.

(عامر): المجموعة رقم (أ) ستنتظر الكيان عند مدخل المدينة، ثم تتبعهم وعند دخولهم المفرق سيطلق النار عليهم، والمجموعة (ب) تتبع (أ) لأننا لا نعرف عدد مجموعاتهم الداخلة، وهكذا هو التقسيم، المجموعة (ت) ستنتظر المجموعة الثانية للكيان، والمجموعة (ث) ستتبع المجموعة (ت)، باختصار كل مجموعتين منا ستتبع مجموعة واحدة من الكيان، هل توافقوني الرأي؟

(حسن): فكرة رائعة يا (عامر)، سنتوكل على الله ونبدأ.

تفرقت المجموعات، وبعد نحو ساعة بدأت مجموعات الكيان بالدخول واحدة تلو الأخرى، ثم تبعت المجموعة (أ) الكيان بحسب الخطة المرسومة، وبدأ ضرب الرصاص بين الطرفين، ثم دخلت مجموعات هائلة من الكيان، كانت أعدادهم هائلة بأضعاف شباب المدينة، كان الدجى يتجول في المدينة، لا شيء يُرى سوى شرارات النيران إثر إطلاقه، كان (حازم) و(علي) في المجموعة (ب)، لم يحملوا السلاح، حمل كل منهم خنجراً قوي الضرب، انقض (حازم) على الفريسة وبدأ يطعن بظهره ضربة تلو الأخرى، و(علي) يقف بجانبه يشجعه، كان صوت العدو ينبح بأرجاء الزقاق، أشعل (علي) عود ثقاب ليرى تلك الطعنات التي حفرها (حازم) في ظهر العدو.

(علي): أحسنت يا أخي الشجاع، أتمتلك كل هذه الشجاعة ولا تخبرني؟

(حازم) بعينين دامعتين: كنت أتخيل وجه أبي وأنا أضربه، كنت أراه يبتسم في وجهي!

(علي) وهو يعانقه: أنت شجاع يا...

لم يستطع (علي) إكمال جملته؛ فقد قطع صوته الرفيع صوت العدو الغليظ وراءه وهو يوجه سلاحه نحوهم.

(العدو): أنا آسف لأنني جئت في وقت غير مناسب، وقطعت هذه اللحظات الرومانسية عليكم، ولكن حان دوري الآن.

رفع العدو سلاحه تجاههم، وشرع كل من (علي) و(حازم) بالركض، صُعقت عندما رأيت شباباً من مجموعاتنا يركضون معنا عند مفرق التقاء الأزقة، كان صوت الرصاص يزف المكان، حتى سمعتُ صوت ارتطام جسد يسقط على الأرض، حاولت الالتفات لأرى من صاحب الجثة، وهنا كانت الصاعقة؛ فالمقتول هو أخي (حازم)!

ركضت تجاهه أصرخ كالرضيع الذي يبكي ويريد أمه، حتى سحبته من قدميه إلى زقاقٍ ضيق، كانت الرصاصة قد حفرت خندقاً في ظهر (حازم)، والدماء تسيل كالنهر من منبع ظهره، أخرجتُ منديلاً قماشياً من جيبي -ذلك المنديل الذي أعطتني إياه أمي- وقلت في نفسي: أنا آسف يا أمي، لقد احتجت هذا المنديل وأنا أمسح دماء ابنك الأكبر، وضعت القطعة القماشية على ظهره وضغطت عليها لإيقاف الدماء، ثم بدأ يسعل ويبصق دماءه.

(حازم) مبتسماً: بارك لي يا أخي، سأموت شهيد!

(علي) ببكاء: اسكت يا (حازم)، اسكت أرجوك، ستتعافى، أعدك بذلك.

(حازم): لقد أخذت بثأر أبي وقتلت جندياً، أنا شهيد، أنا شهيد.

أمسكتً بيده، وبدأت أبكي.

(حازم): لا تبكي، إني اشتقت إلى أبي، سأراه الآن.

(علي) ببكاء: بلغه سلامي يا (حازم).

هنا فارق صديقكم (حازم) حياته تاركاً (علي) و(ناديا).

(علي) وهو يعانقه ببكاء: نم قرير العين يا حبيب (علي).

حملت أخي على ظهري أزفه إلى أمي، كان ثقيلاً جداً، حملته بصعوبة، كانت أمي تقف عند الباب، حتى لمحتني، ثم دنت مني بصدمة، قلت لها ببكاء: أحضرت لك ابنك عريساً يا أمي.

قالت: لقد فعلها وعاد إليّ شهيداً.

أنزلته من بين يديّ، كانت تتحسس جسده بصدمة، وكأنها غير مصدقة ما تراه، ثم قالت:

وَا بنيّ، لقد رحلت ولم تودعني، ليتني عانقتك قبل موتك، ليتك كنت بين بيني وبيني، ليتني أعطيتك من عمري لتعيش، آهٍ على قلب أم رحل ابنها ولم تودعه، أخبرني يا بني، أخبرني من سيودعني عند موتي؟ من سيبكي عليّ؟ من سيحملني على كتفيه؟ آهٍ على قلب أمٍ زفّت ابنها إلى قبره قبل أن يزفّها، أخبرني يا حبيبي كيف سيكون حالي عندما أغسل ثيابك؟

ومـا حـالي عنـدما أرى صـورك؟ أرجـوك لا تطـل غيابـك، إننـي أنتظرك، إنني أنتظر إيابك.

كنـت أقـف بجوارهـا أبكـي علـى مـا تقـول، كانـت كـل كلمـات مواسـاة البشـر لـن تواسـي قلبهـا المسـكين، لا أعلـم علـى مـن أبكـي، على أخي أم على بكاء أمي؟

كنـت أقـف بخجلٍ، لقـد حـذرتنا، ولـم نسـمع مـا قالتـه لنـا، لـو أنـي أعـرف أن المـوت سـيغرز أنيابـه فـي ظهـرك يـا أخـي مـا كنـت أخذتك.

وقفـت أمـي تجـاهي ورفعـت رأسـي نحوهـا، وصـفعتني علـى وجهـي بعنـف، تلـك الصـفعة أرتنـي وجـه (حـازم) وأبـي، ثـم قالت:

لقـد حصـل مـا كنـت أخشـاه أيهـا الغبـي، لقـد حـذرتكم، ولـم تسـمعوا، بدأت تفقد توازنها تدريجياً، حتى غابت عن الوعي!

كـان يـوم دفـن (حـازم) مـن أصـعب الأيـام التـي مـرت علـيّ، وعرفـت مسـبقاً أن نصـف المجموعـات التـي قسـمناها استشـهدوا، لم يبقَ إلا الأثر، أثر الشهيد الطاهر.

وقفت بجانـب نعـش أخـي، كنـت أقـول عـن غيـر وعـي: قـم يـا أخـي، ألا تريـد رسـمي، ألا تريـد مصـارعتي، مـن سـيلعب معـي بعـد اليـوم؟ لقـد أصـبحت وحيـداً بـدونك، أرجـوك اسـتيقظ،

أرجوك، كانت أم (عامر) تقف بجانب نعش ابنها (عامر) تودعه، صعقت عندما عرفت أنه استشهد، كان نحيبها يُبكي جميع الناس، وأمي تقف بكل هدوء، لم أكن أعرفها، تلك التي صفعتني تقف الآن بقوتها وجبروتها أمام ابنها الذي سيزف إلى الملائكة اليوم.

مضى شهراً على وفاة أخي، كانت الأيام بعد فراق (حازم) أصعب بكثير من أيام فراق أبي، أمي قطعت حديثها معي، ولم تحدثني منذ وفاة أخي، كانت لا تحدثني إلا عند الضرورة، لقد نسيت كيف يتكلم البشر، كنت في كل مساء أخرج لأحضر الخبز، تخيلوا أنها لم تمنعني يوماً، كنت أغيب كثيراً عن المنزل، فقد كنا نعيش أجساداً خاليةً من الأرواح، المدينة تفقد شبابها تدريجياً، فقد أنجبت لنا مدينتنا ولداً يدعى (الموت)، وما زال حتى هذه اللحظة يسكن بيننا، في كل صباح أذهب إلى قبر أخي لأسقيه، كنت أحدثه عما يحدث بيننا وكأنه حي يرزق، كانت المقبرة تذكرني بيوم الدفن، ذلك اليوم المشؤوم، ما زالت أصوات نحيب النساء وعويلهم على أولادهم في مسامعي، وكنت أكرر في نفسي: ليتني كنت بدلاً منك يا (حازم)، ولكنك أصبحت حياً تحت التراب، ونحن من متنا فوق الأرض!

خلـع الطبيـب نظارتـه ووضـعها جانبـاً، ثـم وقـف بجانـب النافـذة يبكي، فقال:

لم أتوقع، أيعقل أنّ (حازماً) قد مات؟ وكأن كل شيء كالكذب!

(علـي): موتـه كـان صـدمةً علينـا جميعـاً، بيـد ذلـك والـدتي قطعـت حـديثها معـي لأشـهر عـدة، وعنـد مغـادرتي للمنـزل لا تسـألني إلـى

أيـن سـأذهب أو متـى سـأعود، لقـد قسـت علـيّ كثيـراً، ولـم أكـن أستحق تلك المعاملة.

الطبيـب: مـن الطبيعـي أن تعاملـك هكـذا، فـي النهايـة أنـتم عصـيتم أمرها.

(علـي): ولكـن لا تـنسَ أيهـا الطبيـب أننـا كنـا سـنلاقي حتفنـا شـئنا أم أبينـا، إن كنـا قـد خرجنـا أم لا، نحـن محـاطون بـالموت مـن جميـع الجهـات، وكـذلك لا أنكـر أننـي نـدمت بأخـذه معـي، ولكـن هـذا لا يعنـي أنـه لـن يمـوت فـي تلـك الليلـة سـواء أخذتـه أم لا، كـان القـدر أقوى مني ومنه.

الطبيب: ولكن كان عليكم ألا تفرّطوا بأمر والدتكم.

(علي): القدر، القدر هو من أرادنا أن نخرج.

الطبيب: وكم استمرت مدة انقطاع الحديث بينك وبين أمك؟

(علـي): دامـت خمسـة أشـهر، قبـل وفاتهـا بشـهر عـدنا نتحـدث مـن جديد.

الطبيب: ماتت هي الأُخرى؟

(علي): أخذها الموت مني، ظننتها لن تموت، ولكنها ماتت.

الطبيب: كيف ماتت؟

(علي): مثل بقية الشهداء.

الطبيب: رحمها الله، ولكن أريد أن أسألك.

(علي): تفضل.

الطبيب: أذكر أنك أخبرتني بمقولة والدتك: "إياك أن تتخلى عن حلمك، يصبح المرء يتيماً بمجرد تخليه عن حلمه"، هل تلك المقولة حاولت الالتزام بها مع وجود الأحداث في منطقتك؟

(علي): قبل حدوث الانفجار الأول نعم عملت، أما بعد فقد كانت الشجاعة هي حافزي، وفي أثناء الأحداث نسيت مقولة والدتي، كانت "المقاومة" هي الأساس، تخيل أن مقاومة أهالي (غزة) كانت أهم من أي حلم نحلمه.

الطبيب: في هذه الأحداث بالذات يعرف المرء ما حجم إنسانيته.

(علي): لقد رأيت أحجاماً هائلةً في (غزة)، المساعدات، وتوزيع المعونات، وتفقد أهالي المنطقة، والحراسة الليلية، والأغطية، والأطعمة، المساعدة من أجل البقاء مع وجود القذائف التي كنا نراها فوقنا هذه بالذات لم أرها من قبل، مع ذلك أخذنا المصابين جميعهم إلى المستشفيات.

الطبيب وهو يبتسم: جميل، أنتم شعب يستحق التقدير.

(علي): شعبنا يستحق الحرية، التقدير لا ينفع شيئاً بوجود الحصار.

الطبيب: أخبرني كيف كان حال والدتك -رحمها الله- في مدة وفاة أخيك؟

(علي): في يوم وفاته أغمي عليها، واليوم الثاني عند توديعه وتشييعه كانت أكثر صلابة، تخيل أنها لم تبكِ، وكأن الصبر نضج في قلبها، وفي أثناء مدة غيابه كانت تصفن وتنام كثيراً، وتأكل قليلاً، وقليلاً ما كنت أراها تتحدث مع أحد من الجيران.

الطبيب: الحق معها؛ فليس من السهل تحمّل فقدان الشخص الثاني من الأسرة.

(علي): الشخص الأول، (حازم) هو الشخص الأول من مات من أُسرتي.

الطبيب بصدمة: بماذا تهذي؟ ووالدك؟

خرجت لأتجوّل في أرجاء المدينة، كانت الشمس تجهز أغراضها وتتهيأ للرحيل، كنت أسمع صوت ضحك كل من (عامر) و(حازم)، كانت ذكرياتهم عالقة في لُبّ ذاكرتي، كيف للإنسان أن ينسى من يحب؟ كنت نادماً من أجل أخذ (حازم) معي، ولكن القدر شاء وأخذه مني، بدأت الأفكار تأخذني من مكاني، فقط في (غزة) لا يوجد أطفالاً يلعبون في شوارع المدينة، ولا يوجد كهرباء، ولا ماء، ولا شبكة

انترنت، لا يوجد حماية، ولا وسائل تدفئة سوى الأغطية، كنت أفكر في أخذ أمي ونهرب من هنا، ولكن كيف؟

في غزة نعاني من النحافة، تخيلوا أنني أستطيع رؤية عظام قفصي الصدري البارز، أنا على ثقة لو رأى العصفور هذا القفص لأقام موطناً وسكن بداخله ظناً منه أن هذا يدعى ب (قفص العصافير)، ناهيك عن رؤيته للخراب في هواء الحرية، أما عن الملابس فهي واسعة للغاية، لم أكن أعاني من هذا الأمر أنا فقط، ولم أستحِ من هذا الشيء، كنت أتناول الطعام كل يومين تقريباً، وكان الطعام معتاداً (الخبز والماء)، لا أستطيع تفسير ما بداخلي، لقد كبرنا يا أمي، لم نعد صغاراً، في مدينتي أجسادنا حية، وأرواحنا في ذمة الله.

لقد ساقتني أقدامي إلى المقبرة، مقبرة الدماء، جلست على قبر (حازم)، ثم قلت:

هل بلّغت سلامي إلى والدي يا حبيبي؟ أخبرني هل تشعر بالبرد؟ صدقني يا أخي بأنك أنت الآن حيٌّ ترزق، ونحن الأموات، أمي لا تتحدث معي، ولا ترغب في ذلك، لم تعد تسألني إلى أين أخرج، ولا حتى متى سأعود، نسيت كيف يتكلم الإنسان، إني لا أتحدث إلى أحد سواك، وأذهب إلى الجامع أحياناً لآخذ الخبز من الشيخ، أنتم فقط من أحادثهم، أخبرني كيف أحاول إصلاح ما كُسر بيني وبين أمي؟ إنها لا تتقبل فكرة غيابك، وتضع كل هذا الحِمل على كاهلي، لا تصدق أن

القدر هو من أخذك، لا تصدق فكرة رحيلك، هلّا أخبرتني ماذا أفعل يا أخي الأكبر؟

وقف (علي) وبدأ يمسح دمعته الهاربة من طرف عينه، ثم أردف: قبل أن أنسى وأرحل، بلّغ سلامي ل(عامر) وللشباب البقية، وأخبرهم عن مدى اشتياقي إليهم، وأود أن أقول لك أن غزة ستحيا من جديد؛ فالبلاء اشتد، والفرج قريب، الناس هنا تقاوم للنفَس الأخير، لن ندع الكيان يدمرنا، هم أصحاب الدعم المفقود الزائل، أما نحن فلنا رب كريم.

عاد (علي) أدراجه إلى المنزل، كانت (ناديا) تشعل النار لتطهي الأرز، وقف (علي) باستغراب يحدق بها.

(ناديا): أهلاً يا حبيبي.

سار إليها (علي) وحضنها بقوة، وبدأ يبكي، ثم قال:

اشتقت إلى صوتك يا أمي.

(ناديا): أعتذر عما بدر مني يا بُني، أعدك بألا أكرر هذا الشيء.

(علي): لا تعتذري، فالحق علي، أنا من أخذه معي.

جثت (ناديا) أمام (علي)، ووضعت يديها على وجهه ماسحةً دموعه، ثم قالت:

أنت لم تفعل شيئاً، الموت هو من أخذه، لا تضع الحِمل عليك.

(علي) معاتباً أمه: خمسة أشهر؟

(ناديا) ببكاء: لم أتحمل فكرة موته، الفراق يجعلني شخصاً لا يعرف ما معنى الحياة.

أنزل (علي) يديّ أمه، ثم نظر إلى الطعام مبتسماً، وقال:

من أين لكِ بالأرز؟

(ناديا): وصلت بعض المعونات إلى المدينة، ووزعوها على السكان، وكان نصيبنا الأرز.

(علي) وهو يقفز من الفرحة: رائع رائع سوف نتناول الأرز بدلاً من الخبز!

(ناديا): ولكن سنقسّمهم على مدار أسبوع.

نظر (علي) إليها بتفهّم، ففرحة تناول الأرز لا تقدّر بثمن، منذ متى ولم يأكلوا مثل هذا الطعام؟ لقد اعتادت معدتهم تناول الخبز الجاف، ففرحة تناول الأرز أنستهم الحصار والكيان، السعادة هنا تكمن في التفاصيل الصغيرة، في النعم التي لا نشعر بها، كل منا يرى السعادة بعين تختلف عن الآخر، السعادة نسبية كفرحة تناول الأرز مثلاً!

استمر الحصار، واستمر انقطاع الطريق نحو الحياة، وكثرت الانفجارات، وازدادت نسبة الوفيَات، والمستشفيات أصبحت تعاني من طفيف الأجساد المحشورة فيها، والمقابر سئمت من موت الشباب، وهناك من يعيش في المقبرة ينتظر الموت بأن يأذن له، وهناك من ينام في الشارع يلتحف الهواء، وهناك من ينام في المسجد يروي أذنه من صوت القرآن، وهناك من ينام في بيته ينتظر سقوط قذيفة عبثية تلحقه بأقرانه، كلهم ينتظر موته بطريقته الخاصة.

مع ازدياد سوء أحوال المدينة، عادت الكتائب تظهر من جديد، كانوا يوزعون الطعام على السكان إن وجد، ويحرسون المدينة ليلاً، ويساعدون أصناف البشر، كانت تلك الكتائب تتضمن جميع الفئات العمرية، لم يأبهوا للقذائف العبثية، فجميعهم يسعى نحو نيل الشهادة والموت المشرف لهم وللوطن، مع أن الكيان لم يشنّ أي هجوم ليلي منذ وفاة (حازم)، ولكن احترازاً من أي عدوان ظلوا طوال الليالي يسهرون حماية ودفاعاً عن الأهل والأرض، لم يشارك (علي) مع تلك الكتائب، كان يساعد الناس وحده، لم يقبل بترك والدته وحدها ليلاً، واستمرت الحياة على هذه الوتيرة نفسها حتى تقدّم ذلك اليوم المشؤوم مُمسكاً حياة (علي) بين يديه ليغير مجراها.

ذهبت إلى المسجد كالعادة، وقفت أنتظر دوري لأحصل على الخبز، كانت تقف أمامي سيدة أربعينية، لولا عدم إخباري بسنها هذه لقلت إن عمرها في الستين، كنت أشعر بأني رأيتها من قبل، سألتها عن اسمها، قالت:

اسمي (خلود)، وأُدعى أم (عامر).

نظرت إليها باستغراب، فقلت والفضول يلتصق بي: (عامر) الشهيد - رحمه الله- نفسه؟

قالت بدهشة: نعم، هل تعرفه؟

(علي): نعم، إنه صديقي، تعرفت إليه عند تقسيمنا لكتائب لحراسة المنطقة.

قالت بتفهّم: أنت الناجي من بينهم إذاً.

قلت: لا يا خالة، أنا القتيل وهم الناجون.

(خلود): وما أحوالك؟

(علي): أحاول التعايش.

(خلود) والدموع تحتبس خلف قضبان عينيها:

الحال هنا على سوية مع حالك.

(علي) متسائلاً: وما نهاية الصبر يا خالة؟

(خلود): النصر، ما بعد الصبر النصر.

(علي): أخاف أن ينفدَ صبرنا...

لم يكمل (علي) جملته حتى قطع صوته صوت انفجار وقع بالقرب منهم!

صرخ (علي): أمي!

أسرعَ (علي) نحو المنزل، كان الدخان المتكاثف يخرج من فوهة المنزل، والبشر يتكتلون حوله، كانت أشلاء المنزل المتساقطة أرضاً تصرخ وصوتها يصدح، وقف (علي) بعينين دامعتين ينظر لتعب أبيه الزائل والساقط أرضاً، مشى بسرعة يُبعد الناس عن طريقه يصرخ أمي، أين أنتِ؟ ودخل للغرقة المتبقية من المنزل، وهنا كانت الصاعقة!

وجد جسد أمه مرمياً تحت حائطٍ ساقط ويدها هي القطعة الخارجة حيةً، جثا على ركبتيه وبدأ يبكي، دخل الناس ينظرون إليه، منهم من يربّت على كتفه، ومنهم من يواسونه، قال (علي) باكياً:

ما هذه الخيانة يا أمي؟ كيف لكِ أن تهربي من هنا بدوني؟ ألم نتّفق أن نهرب معاً؟

لو أني أعرف أنكِ سترحلين عني ما كنت رحلتُ عنكِ!

بدأ الناس يُخرِجُون جثة الفقيدة أو بالأحرى أشلاء جثة الفقيدة دُون الحائط، (علي) باكياً:

تمهلوا بإخراجها يا شباب، تمهلوا، أخاف أن تتألم أو تتأذى من أطراف الحائط الساقط عليها، إنها الفقيدة الأخيرة التي أودعها من عائلتي.

أخرج الشباب أشلاء الجثة ووضعوها في سيارة الإسعاف، كان (علي) يجلس على طرف ناقلة الجثث ممسكاً بيد أمه الصامدة، دُهِش عندما وجد أصابع أمه مطوية عدا السبابة، كانت تتشهد قبل موتها!

(علي) وهو يمسح برفق على يد أمه: كنتُ أحضر إليك الخبز يا أمي، لقد رحلتِ قبل أن تتناولي شيئاً، رحلتِ وأنتِ جائعة!

بدأ الأطباء يبكون إثر كلام (علي)، حاولوا تهدئته دون جدوى، وصلت سيارة الإسعاف إلى المستشفى وأدخلوا ناقلة السيدة (ناديا)، كانت المستشفى تعج بالبشر، والغرف مملوءة بالجرحى، عند هذه اللحظة تذكر (علي) تلك المرة التي دخل فيها إلى المستشفى بحثاً عن والده، بدأ فيروس الذكريات يهاجمه حتى صدح صوت الطبيب قائلاً:

أدخلوها إلى هذه الغرفة، فيها سريرٌ خالٍ.

الغريب في الأمر قلّما تجد غرفةً سريرها فارغ في مستشفى يكثر فيها الجرحى والمصابين، دخلنا إلى الغرفة، هنا علمتُ حكمة الله من دخولنا، وستعلمون أنتم أيضاً حكمته معي.

دخلنا إلى الغرفة ووجدتُ رجلاً خمسينياً، ضخم البنية، والشيب يخالط شعره، قمحي البشرة، كان مستلقياً على السرير الآخر، ذلك الرجل هو السيد (حسام) والدي -رحمه الله- ما زال حياً مستلقياً على السرير، يضع الأوكسجين على أنفه، تغطي نصف وجهه آثار الحروق الملتهبة، وقفتُ في منتصف الغرفة بين السريرين، أنظر إلى الطرفين، لا أعلم أين أبقى، أعند والدي -رحمه الله- أم عند أشلاء والدتي؟

غطى الطبيب وجه أمي، ثم تقدم نحوي ووضع يده على كتفي يرثيني قائلاً:

كم من الصعب عليّ إخبار أي أحد عن عزيزٍ فارقه، ويؤسفني جداً أن أعزّيك بوفاة أعز ما عندك، لقد فارقت والدتك الحياة أيها الشاب الصغير، لقد انتقلت إلى حياة أجمل من هنا بكثير، انتقلت إلى حياة لا يوجد فيها ظلم ولا يعبث بها الظالم.

(علي) ببكاء: أين العدل؟ أليست الحياة تناصف البشر؟ أليست الحياة تدور وتسقي البشر بالكأس نفسه؟ طوال حياتي لم أرَ الحياة تنصف البشر بشيء سوى الظلم.

جثا الطبيب على ركبتيه مربتاً على كتف (علي)، وقال:

صدقني أيها الشاب، إن لم تناصفك حياة الدنيا ستناصفك في الآخرة، أنا أعلم عدل الله.

نظر (علي) تجاه والده بعينيه المهترئتين من آثار الدموع، ثم قال:

أتعلم من هذا الرجل المستلقي على السرير؟

الطبيب: مَن؟

(علي): هذا والدي، فقدناه منذ مدة طويلة، بحثنا عنه كثيراً ولم نجد له أي أثر حتى ظننا أنه قد توفي، ظننت أن أمي هي آخر شخص أفقده من عائلتي، وكأن أبي عاد من موته!

الطبيب بابتسامة: أرأيت عدل الله؟ والدك حي يرزق، الحمد لله على سلامته.

خرج الطبيب من الغرفة، وجلس (علي) بجانب والدته ورفع الغطاء عن رأسها، ثم همس في أُذُنها:

أمي، أمي والدي هنا، ألم تقولي لي تلك المرة أنك ستنتظرينه؟ إنه هنا بجوارك، ولكنه نائم، أبي نائم يا أمي ألم تشتاقي إليه؟ ههو هنا، هيا يا أمي استيقظي كي ترينه، كنت أود أن أوقظك بطريقة مهذّبة وأقوى من هذه، ولكنني أخشى أن يستيقظ والدي وينزعج منا، وإن (حازماً) قادم إلينا لن يتأخر...

بدأ (علي) يشهق بالبكاء، ثم قطع بكاءه صوت حركة جسد والده، نظر إليه باستغراب، ثم وقف تجاهه، فتح (حسام) عينيه ينظر حوله، ثم حوّل بصره تجاه (علي)، رفع حاجبيه مندهشاً، وبدأ يئن وكأنه يريد إخباره بشيء ما، دنا منه (علي) واضعاً يديه على يديّ والده، ثم قال بصوته الباكي:

لا تقل شيئاً يا حبيبي، أعلم ماذا ستقول لي، تريد أن تسألني ما الذي أتى بي إلى هنا، وتريد أن تسألني كيف عرفت أنك هنا، سأخبرك عندما تصبح حالتك جيدة، لن أخبرك الآن حتى لا تسوء الأمور أكثر ما هي سيئة، استرح الآن يا حبيبي، ونم جيداً، أغمض عينيك واحلم بي.

ابتسم الأب ابتسامة خفيفة، ثم أغمض عينيه ليعلن رحيله إلى بلاد الأحلام، هنا اطمأن (علي) من أجل نوم والده حتى لا يرى الأطباء وهم يخرجون والدته من الغرفة وتسوء حالته أكثر.

دخل الأطباء وبدؤوا بالتجهيز لإخراج السيدة (ناديا)، كان (علي) يراقبهم عن كثب، نظر إليه الطبيب وقال:

هل ودعتها قبل أن نُخرجها؟

أومأ (علي) برأسه إيجاباً، وأخرجوها.

(علي): أيها الطبيب.

الطبيب وهو واقفٌ عند الباب: تفضل أيها الشاب الصغير.

تقدم (علي) بخُطىً واثقة تجاه الطبيب، ثم قال:

أخبرني عن حالة والدي.

الطبيب: منذ مدة بعيدة تقريباً جاء به الأطباء إلى هنا، كان والدك ينزف كثيراً من بطنه، وكان وجهه مشوهاً أكثر من الآن بكثير، وقدمه مكسورة نتيجة الضغط ومحاولته للهروب من المكان، أجرينا له عمليات عدة، ودخل في غيبوبة استيقظ منها بعد شهر، والآن حالته أفضل بكثير، نعطيه المسكّنات (المورفين)، وأعدك في الغد ستكون حالته أفضل وسيعود لكم كما كان.

(علي): سيعود لي.

الطبيب: أعتذر.

(علي): جزيل الشكر من أجل جهودكم.

الطبيب: هذا واجبنا.

خرج الطبيب من الغرفة، وأسرع (علي) إلى جانب والده، ثم قال:

أبي، هيا يا أبي لا تتأخر سنخرج من هنا، سنخرج من هنا ومن غزة قريباً، سنهرب.

وقف الطبيب مندهشاً لما رواه (علي)، ثم قال:

قصتك غير معقولة، يستحال ذلك.

(علي): أيها الطبيب، إن هذه الحرب التي دمرت ما تبقى منا، والتي قتلت أجمل أيام ربيع عمرنا، والتي كان من المفترض أن نعيشها كبقية سائر الأطفال، هذا هو الشيء غير المعقول، إنما الحرب كانت معقولة وحقيقة ترتدي ثياب الواقع الكئيب.

الطبيب: لم أقصد تكذيبك؛ ولكن...

قاطعه (علي) قائلاً: أعلم أن لقائي بوالدي كان خارج نطاق المنطق والتصديق؛ ولكن أيها الطبيب، هذه الحرب قطفت الياسمين، وأغمضت عيون الينابيع، وشرّدتِ الغزال، وتآمرت بِطانة الليل وأمسكت غزة من يدها وزجّتها في سجن رماديّ منفيّ عن حياة الترف والرفاهية، ما رأيناه في أثناء الحرب هو الشيء غير المعقول، ما عشناه هو الشيء غير المعقول، ما شعرنا به أيام القصف والانفجارات هو الشيء غير المعقول، شعورنا عندما نفقد أي أحد منا هو الشيء غير المعقول.

الطبيب: مجرد التفكير في ماهية الحرب شيءٌ صعبٌ وقاسٍ، فكيف إذا الحرب نفسها؟ أعلم تماماً أن الحرب فيها الربح أو الخسارة.

(علي): بِكِلا الحالتين غزة هي الرابحة، رابحة عندما تفقد أي ولد من أولادها نعلم أن مصيره الجنة، ورابحة عندما يعيش ولدها، كل إنسان ما زال حيّاً في غزة هو رابح، العيش في ظل الحرب هو فوزٌ حتميّ.

الطبيب: كلام منطقي جداً، منذ متى وأنت في مصر؟

(علي): منذ عشر سنوات تقريباً.

الطبيب: كيف وجدت الحياة هنا؟

(علي): ولدت ولادة جديدة، مثلما كأنك تخرج من سجن ضيق إلى هواء الحرية.

الطبيب: هل قطعت حبل الأمل من فكرة قدومك إلى مصر عندما كنت في غزة؟

(علي): في العادة أنا شخص إيجابي جداً، أحب الحياة ويسرّني عيشها، ولكن ما حدث معنا أنهى فكرة الأمل لدي، مجرد أن تكونَ حياً تحت سماء الحرب ولا تعلم متى تأتي اللحظة وتضع في جُعبتها انفجاراً يقضي عليك متى أراد ذلك، هذا الشعور ألقى القبض على الأمل ودفنه بداخلي.

الطبيب: صِف لي الآن شعورك وأنت تعيش في مصر.

(علي): قليلاً من النسيان، وكثيراً من غزة.

الطبيب: ألا تريد إكمال قصتك؟

(علي): قصتي لم تبدأ بعد حتى تنتهي.

الطبيب: عليك أن تنسى يا (علي)، المستقبل ينتظرك، الماضي لا يحتاجك.

(علي): كاذب من يقول إن الماضي يموت، الماضي هنا معنا في كل لحظة، الماضي يعيش فينا، لو لم يكن لدينا ماضٍ لما خُلق حاضرنا، لمَا خُلقت نسختنا الجديدة من أنفسنا.

الطبيب: لولا التجاوز لما أكملنا.

(علي): كثيرون من لم يتجاوزون، نحن في الماضي نعيش بإنسان والحاضر بإنسان آخر، لولا الماضي وتجربته لما خُلِق الإنسان الآخر.

الطبيب: الحرب غيّرت لك أفكارك.

(علي): غيّرتنا بالكامل.

الطبيب: ألا تريد إخباري كيف خرجت من غزة؟

ابتسم (علي) ابتسامة خفيفة، ثم قال: طبعاً، اسمع...

بعد مرور ثلاثة أشهر...

أصبحت حالة السيد (حسام) جيدة، وخرج من المستشفى، وسكن مع (علي) في الجامع بعد أن دُمّر منزلهم، عانى السيد (حسام) من مشكلات نفسية قاسية بعد سماعه خبر وفاة زوجته وابنه، ظل يعاني مدة شهرين ونصف؛ لكن (علي) لم يتركه في هذه الحالة المزرية، بقي بجانبه وحاول معه للتخلص من هذه الأزمة وخصوصاً أنه لم

يتبقّ لهما أي أحد سوى بعضهما بعضاً، تعرّف (علي) إلى فتاة تدعى (ليان) في الجامع، فتاة يتيمة تصغره بسنوات عدة، (ليان) فتاة شقراء، بيضاء، تتّسم بطابع النعومة، كان يلعب معها دائماً، لقد أعادت إليه طفولته المسلوبة، كانت تذكره بأخيه (حازم) -رحمه الله- هذا ما أعاد أليه الشغف في حياته السوداء، كان الناس في الجامع ينامون متلاصقين ببعضهم بعضاً، هذا الالتصاق يخفف عنهم وطأة البرد، عانوا ولاقوا كثيراً من برد وجوع وقلة حياة، اختفت الكتائب، وكانوا يأكلون الطعام المعتاد (الخبز والماء)، ومع كل تلك الشدائد ظل الناس يحبّون بعضهم ويتودّدون ويتساعدون، لم ينسوا أصلهم الفلسطيني؛ فقد شُهِروا بطباعهم وشِيَمهم ومروءتهم في أيام القحط والاحتلال الصهيوني.

أحبَّ (علي) (ليان) حبّاً عفوياً طفولياً، وظلوا على عهد الحب أشهر عدة، ومن جهة أخرى ازداد القصف على المدينة، ودُمّر بيوتاً كثيرةً مما أدّى إلى ازدياد نسبة النازحين إلى الجوامع، ظلّ الناس يعانون من نقص الأوكسجين في الجوامع ليلاً، هذا كله غير التلاصق في أثناء النوم، خرج كل من (حسام) و(علي) و(ليان) من الجامع لينامو في الطرقات؛ لأن صحّة السيد (حسام) لم تعد تناسب كثرة التجمعات والتلاصق الجسدي اليومي، عانوا كثيراً من البرد والجوع من خلال نومهم على أرصفة الطرقات، عندما يعتاد المرء على البرد ويذهب إلى مكان دافئ سيشعر بالبرد أيضاً؛ فالإحساس الأول من كل شيء يصعب نسيانه، ومثال آخر: مهما تلقّى الإنسان الناقص من ترف وعزّ سيبقى النّقص نُدبة محفورة في جلده، كانت (ليان) تنام في

زقاق ضيق، أما (حسام) و(علي) ينامون في زقاق مقابل لها، السيد (حسام) لم يمانع من فكرة إبقاء (ليان) معهما؛ فلم يتبقّ لها أي أحد سواهما، عاشت يتيمة الأبوين، وكان يعلم أن (عليّاً) مغرم بها، ويريد الزواج منها عندما يكبر.

ومع ازدياد سوء الأحوال، وازدياد القصف والدمار وكثرة الوفيات، قرر حينها السيد (حسام) قراراً صادماً سيغير حياتهم، والذين سينفّذوه بالقريب العاجل.

استيقظ السيد (حسام) إثر قذيفة سقطت بالقرب منهم، أصبحت المدينة مكتظّة بالآهات، ومن كثرة الصراخ والعويل تشعر وكأن صوت الأنين أكثر من البشر، الأمهات تبكي على الأبناء، والأبناء يبكون على الآباء، كانت المشاهد مؤلمة جداً؛ فالقذائف لم تسقط قط على الأبنية، بل سقطت على قلوبنا ودمرتها، دمرت كل شيءٍ فينا، كيف سيبني هذا الجيل مستقبلهم إن كانت وسائل التعليم قد ماتت إثر الكيان الصهيوني؟ كيف سيبنون كل تلك الأبنية التي قد سقطت إثر القذائف؟

أيقظ السيد (حسام) ابنه و(ليان)؛ لأن (عليّاً) كان غارقاً في نومه ولم يشعر بأي شيء، بدأ السيد (حسام) بالبكاء، ثم قال:

الليلة...

زوى (علي) ما بين حاجبيه؛ ثم سأله:

ماذا؟ لمَ لم تكمل؟

(حسام) ببكاء: الليلة سنغادر.

(علي) مستغرباً: إلى أين يا أبي؟

(حسام): سنخرج من غزة.

(علي): ماذا حصل يا أبي؟

(حسام) وهو يجلس على الأرض بجانب ابنه: منذ قليل سقطت قذيفة بالقرب منا.

(علي) وهو ينظر إلى (ليان): لم أشعر بأي شيء؛ ولكنني أسمع صوت الضوضاء في كل مكان.

(ليان): وأنا أيضاً لم أشعر بشيء.

(حسام): هُنا لا تتعجب إن رأيت كل شيء يصرخ؛ فالأبنية المتساقطة تصرخ، وحتى الصمت لا بُدّ له أن يصرخ يوماً.

اقترب (علي) من والده أكثر، ووضع رأسه على فخذيّ والده، ثم نظر إلى عينيه، وقال:

أبي، لا أريدك أن ترحل، عندما كنت صغيراً ظننت أن الآباء لا يرحلون، حتى جاءت الحرب بهَيبتها، جاءت تحمل بيديها أغلالاً قيدت أَيْدي الكبار والصغار، قد يُكسر ظهر المرء بمجرد فقده لأبيه حتى لو سنده كل العالم.

(حسام) والدموع تفرّ من محاجر عينيه:

لن أرحل، أتعرف لماذا؟

(علي): لماذا؟

(حسام) وهو يعانقه: لقد جمعني بك القدر في المستشفى، هذا الجمع - بيني وبينك- رتّبه الله لنا، ولن يتفرّق إلى أن يأذن الله لنا بذلك.

ثم أردف:

كل تلك المواقف التي حدثت سينتج عنها الرحيل، وأريد أن أوصيك يا (علي).

(علي): تفضل.

(حسام): بمجرّد شعورك بعدم الرضا في أي مكان غادر، في هذه الحالة الأَوْلى لي ولك وللجميع المغادرة.

(علي): وكيف سنغادر من هنا؟

(حسام): سنهرب عبر الحدود.

(علي): ولكن الحدود محاصرة.

(حسام): سأتولى الأمر أنا، لا تقلق.

(ليان) والدموع تفرّ من عينيها الواسعتين:

وهل ستأخذوني معكما؟

دنا السيد (حسام) منها، وأمسك يديها الصغيرتين، وقال:

وهل أستطيع تركك دون أخذك معنا؟

ثم أدار وجهه تجاه (علي)، وأقبل مبتسماً، وقال:

أخبرني يا (علي)، ألم تقل لي البارحة أنك لن تستطيع العيش بدون (ليان)؟

(علي): صحيح، أنا لا أستطيع العيش بدون (ليان)، وإن شاء ربي لنا بأن نكبر معاً سأتزوّجها لو عارضني العالم بأسره.

أدار السيد (حسام) وجهه تجاه (ليان)، وبدأ يمسك البئر المحفورة في خدها، وقال:

أرأيتِ؟ هذا العاشق الصغير لا يهوى العيش إلا بدونك، (علي) إن وضع شيئاً في رأسه لن يرتاح حتى يحققه، أتعلمين أين أنتِ الآن يا (ليان)؟

(ليان): في رأسه.

بدؤوا بالضحك، ثم أخذ السيد (حسام) صحن الخبز الذي يلفه الماء، ووضعه أمامهم، ثم قال:

كلوا واشبعوا، اليوم لن نعد نأكل شيئاً؛ فالليلة هي ليلة الرحيل، كونوا متجهزّين.

(علي): إلى أين سنهرب؟

(حسام): إلى أمّ الدنيا (مصر).

خلفَ ستائرِ الطَّسَم

هبط الليل على مراكب المدينة، كان القمر ليلتها مكتملاً، وكانت المدينة هادئةً لا أثر للضجيج فيها، سأل السيد (حسام) الأطفال:

جاهزون؟

وصوت واحد من كِلا الطفلين: جاهزون.

شرعوا بالمشي بطيئاً بين الأزقّة، كان القمر ينير بقناديله شوارع المنطقة، حتى سمعوا صوت الرصاص من بعيد!

(حسام): اركضوا يا أولاد.

بدؤوا يركضون بين الأزقة الضيقة، والمكان الذي يقطنون به سابقاً كان في آخر (غزة)، وعندما وصلوا إلى حدود المنطقة حدث شيئاً غير متوقع، لقد حدث انفجار في النقطة نفسها!

(علي) وهو يهز والده: استيقظ يا أبي، أرجوك استيقظ.

بدأ السيد (حسام) يفتح عينيه رويداً رويداً، ثم نطق بعجز:

اهرب يا (علي)، لن أستطيع الرحيل معكما، لن أستطيع إكمال طريقي.

(علي) ببكاء: لا تقل ذلك يا أبي، الرجل ينتظرنا أمام البحر، سنرحل هيا قُم.

(حسام): لا أشعر بقدميّ، ولا أستطيع التحرك نهائياً، خذ معك (ليان)، وارحلا.

(علي): لقد وعدتني ألّا ترحل، ويستحال عليّ الذهاب وتركك هنا وحدك.

(حسام): لن أكون وحدي، الكيان قادمٌ إلى هنا، هو الذي أحدث الانفجار وسيأتي لتفقد المنطقة، سيرون من يحاول الهروب؛ لذلك اهربوا بسرعة.

(علي) وهو يهز كاهل والده: أبي أرجوك، من سيكون معنا هناك؟

(حسام): الله معكم، قلت لك خذ (ليان) وارحلوا، لن أستطيع التحرك، وليكون بعلمك إن لم ترحلا سأغضب عليك يا (علي).

كم من الصعب أن تختار شيئاً لا تريده، وكأنك تريد ثوباً أبيض، وتُهديك الحياة ثوباً أسود، كأنها تقول لك: خذ هذا وارتديه حِداداً على نفسِك.

ذهب (علي) إلى (ليان) الغائبة عن الوعي، وبدأ يوقظها...

(علي): هيّا يا (ليان)، سنتأخر.

(ليان) تُفتح عينيها ببطء، ثم قالت:

أين أنا؟

(علي): لا وقت للسؤال، هيّا قومي.

(ليان): أين والدك؟

(علي) وكأنه يعزّي نفسه: لن يأتي معنا.

هبّت (ليان) واقفةً بصدمة، ثم أمسكت طرف ثوب (علي)، وقالت وهي تهزّه بعنف:

لماذا؟

(علي): سقطت قذيفة هنا، وفي الغالب والدي قد شُلّت حركة قدميه، ولن يستطيع التحرك أو المشي.

(ليان): سأتحدث معه أنا.

أمسكها من طرف قميصها، ثم أدارها إليه، وقال:

لا داعي لذلك، لقد فقدت الأمل بأخذه معنا، حاولت معه كثيراً ولم يقبل، وقال لي بذات نفسه أنه سيغضب علينا إن لم نرحل.

(ليان) ببكاء: لا أصدق ما حصل، وكيف سنرحل الآن؟ أين الرجل؟

(علي): ينتظرنا بالقرب من البحر.

(ليان): أرجوك يا (علي)، أرجوك دعنا نحاول معه مرة أخرى، لعله يقبل، أنا مستعدة أن أحمله على ظهري.

(علي) وهو يعانقها ببكاء: ليته يقبل، تعالي نذهب إليه ونحاول معه.

ذهب (علي) و(ليان) إلى السيد (حسام)، كان يئنّ من شدة الألم، ويحاول التحرك ولكن دون جدوى، جثا (علي) على ركبتيه، وأمسك بيد والده، ثم قال:

أبي، هل تستطيع التحرك؟

(حسام) وهو يفتح عينيه مجدداً بصعوبة: لا، لا أشعر بشيء.

(علي): أستطيع حملك.

(حسام): إياك أن تفعل.

(ليان) ببكاء: أبي، أرجوك اذهب معنا، لن نستطيع إكمال الطريق بدونك.

(حسام): ارحلوا وسيكون الله معكما في كل خطوة، أنا لا أستطيع الرحيل.

ثم أردف:

أخبرتك يا (علي) الكيان قادم، وإن لم ترحلا سيأخذكم.

وقف (علي) ممسكاً بيد (ليان)، وبدأ يبكي بصمت، ثم رفع رأسه نحو والسماء، وبدأ يصرخ:

يا الله، يا الله كن معنا، نحن لا نريد سواك، ابعث إليّ إشارة كي أعلم ماذا أفعل.

لم يلبث أن يُنهي جملته حتى سمع صوت الرصاص.

(حسام): اركضوا هيّا، الكيان قادم، والرجل ينتظركم في الجهة الأخرى، بسرعة.

بدؤوا بالركض حتى قاربوا الوصول إلى النقطة المطلوبة، وسقط انفجار آخر بجانب البحر.

هبَّ الطبيب واقفاً بصدمة، ثم قال:

وماذا حصل؟

(علي): وقعت القذيفة بالقرب منا، وسقطنا غائبين عن الوعي، ثم استيقظنا في شوارع القاهرة، ثم ذهبنا إلى الملجأ وعشنا هناك، حتى بلغنا الثمانية عشر عاماً، وبدأت (ليان) تعمل في مجال الخياطة، وتزوجنا.

قال الطبيب باكياً: انتهت قصتكما بالزواج إذاً.

(علي): عندما يضع الرجل هدفاً محدداً لن يرتاح إلا عندما يحققه، وأنا هدفي الزواج منها وتزوجتها.

الطبيب: عندما سقطت القذيفة الأولى ماذا حدث بك وب(ليان)؟

(علي): أنا أصبت بجروح عدة، و(ليان) أصيبت برضوض خفيفة؛ ولكنها قاومت ألمها للهروب.

الطبيب: ألم ترَ وجه الرجل الذي هرّبكما؟

(علي): لم نلحق، القذيفة سقطت قبل وصولنا إليه، ولم نره عند وصولنا، ليتني ألتقي به لأشكره.

الطبيب: ووالدك أين هو الآن؟

(علي): لم أره منذ الحادثة الأخيرة.

الطبيب: هل تغيرت (ليان) بعد زواجك منها.

(علي): لا، لم تتغير، والحب بقي بيننا، كاذب من يقول إن الحب ينتهي عند الزواج، ما زلت أحبها وكأنني أحبها لأول مرة.

الطبيب: هل من الممكن أن يكون عمل (ليان) هو رابط حبك لها؟

(علي): يستحال ذلك...

قُطعت جملته تلك بالطرق على الباب، وإذ بالممرضة تدخل بعد أن أذن لها الطبيب...

الممرضة وهي تقف عند الباب: هنا من يسأل عن السيد (علي).

الطبيب: هل ذكر لكِ اسمه؟

الممرضة: نعم.

الطبيب: من؟

الممرضة: اسمه السيد (حسام).

لقاءٌ تحتَ سَماءِ المَطَر

الممرضة: اسمه السيد (حسام).

(علي) متلعثماً: هل أنتِ متأكدة؟

الممرضة بامتعاض: نعم.

وقف الطبيب يحاول تفسير ما يحدث، ثم قال للمرضة:

اذهبي أنتِ، سنخرج نحن.

خرجت الممرضة، ثم ألقى الطبيب نظرة لوم على (علي)، وقال:

هلّا فسّرت لي ماذا يحدث؟

(علي) ببكاء: بماذا أقسم أني لم أعلم أنه حيّ، كيف؟ متى قدِم إلى هنا؟ أبي، أبي حيّ، لا أصدق!

الطبيب: سأذهب لأناديه.

عاد الطبيب وهو يجرّ كرسي السيد (حسام) المشلول، ثم وضعها بجانب سرير (علي).

الطبيب: أنا سأخرج، والدك أصبح بجانبك يا (علي).

(حسام): علي، بُني أنا والدك، اشتقت إليك كثيراً.

(علي) ببكاء: ليتني أستطيع رؤيتك يا أبي.

زوى السيد (حسام) ما بين حاجبيه، ثم قال:

لم أفهم.

(علي): عند اقترابنا من النقطة المطلوبة ومحاولتنا للهروب سقطت قذيفة وفقدت بصري، أنا ضرير يا أبي، أنا ضرير، ليتني أراك الآن لأرى ما حالك.

(حسام) ببكاء: ضرير! لا أصدق ذلك.

(علي): أرجوك لا تبكي، هذا قدر الله، قل لي أنت كيف حالك الآن؟

(حسام): لقد شُلّت قدميّ، والآن أجلس على كرسي متحرّك.

(علي): ليتني أستطيع رؤيتك، انظر إلى القدر يا أبي، انظر كيف جمعنا، ليت (حازماً) وأمي معك.

(حسام): لن يعد التمني يُجدي بشيء يا بُنيّ، أخبرني أين (ليان) وما حالها؟

(علي): (ليان) تعمل في مجال الخياطة.

(حسام): وأين عشتم في أثناء وجودكما هنا؟

(علي): عشنا في الملجأ، عشنا قليلاً من الحياة، بكينا كثيراً، تألمنا، وتزوجنا.

(حسام): فعلت ما أردت.

(علي): أخبرني أنت كيف وصلت إلى هنا، ومن أخذك إلى المستشفى في تلك الليلة المشؤومة؟

(حسام): جاءت سيارة الإسعاف وأنقذت كل مصاب، وعشت طوال مدة ألمي في المستشفى، وانتقلت بعدها إلى الجامع، ثم تواصلت مع الرجل الذي أخذكما.

(علي): لقد عانيت كثيراً يا أبي.

ثم أردف:

أعطني يدك يا أبي، لقد اشتقت لمخمل يديك.

(حسام): أتعلم ماذا؟ كنت أفكر أن حياتي كلها كانت مصائب ورحيل، ولكن لا اعتراض على حكم الله.

(علي): لنا أجر الصبر.

(حسام): سوف أمضي بقية أيامي مقعداً وأنت لا تبصر، لقد خرجنا من حرب الحياة أشلاء.

(علي): ولكن خرجنا، ليس المهم كيف تخرج من الحرب، المهم هو الخروج بعينه.

(حسام): معك حق يا أبتِ.

(علي): من أتى بك إلى هنا؟

(حسام): الرجل الذي جاء بي وبك إلى هنا.

(علي): ليتني أراه كي أشكره.

(حسام): أخبرني يا (علي)، كيف كانت حياتك بين مدة هروبك وقدومي؟

(علي): منذ بداية الحرب وأنا أتعايش، لم أعش يوماً، وثمة فرق بين العيش والتعايش، الحرب عجنت أيامنا، وما يحزنني أكثر هو أنني عندما خرجت إلى الحياة فقدتُ بصري.

(حسام): كم من مُبصرٍ أعمى، وكم من أعمى مُبصر، الأعمى هو أعمى البصيرة لا البصر.

انتهت أحداث القصة بموت (علي) بعد خروجه من عند الطبيب مباشرة، مات وهو يقطع الشارع مع والده بمساعدة الطبيب الذي فشل بإنقاذه، وعاش السيد (حسام) مع (ليان) وحفيده (علي) الصغير الذي لم يلحق والده برؤيته.

في رحيلك الأول يا بُني لم أصدّق، أتيتك كي أراك وأعيش معك، وعند رحيلك الآخر لم أصدّق أيضاً، لقد عشتَ طوال مدة الحرب ولم يخدشك الموت، بل خدشتك الحياة يا فقيدي؛ ولكنّ القدر كتب لي أن أراك قبل رحيلك الآخر، ولم يكتب لك أن تراني يا بصري وبصيرتي، أنار الله قبرك، وجمعني بك في جنته، بلّغ سلامي لأمّك ولأخيك.

تمّت بفضلِ الله.